ذراعٌ يحملُ الفاكهةَ

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي
ALKANZY

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج
أحمد عبد الحليم

مدير النشر
مهند يحى

الكتاب : ذراعٌ يحملُ الفاكهةَ
تأليف : ممدوح عبد الستار
تصنيف الكتاب : مجموعةٌ قصصيَّةٌ
إخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٣٠٨٠ / ٢٠١٩
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6660 - 54 - 0

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01062104822
Alkanzy.co@gmail.com
info@alkanzy.net

محفوظة جميع الحقوق

ذراعٌ
يحملُ الفاكهةَ

مجموعةٌ قصصيَّةٌ

ممدوح عبد الستار

إهداءٌ

إلى الذي علَّمني، وترك لي حُلمه الذي لم يكتمل (الله يرحمه)..

إلى كل من غابوا عنا، وما زلنا نحبهم (الله يرحمهم)..

المثقلُ بأحلامٍ ناقصةٍ

ممدوح عبد الستار

***

البحثُ

خرج يبحث عنها، فقد قالوا له: (قد غابتْ عنا يا أحمد!)، وخرج سليمان يبحث بلهفة، فقد كانت حاضرةً معه منذ قليل، ولم يعرف قدرها، فأحسَّ أنه قد سُلب متاعه حين قالوا له: (خرجتْ، ولم تعد حتى الآن).

خرجت الفتاة إسلام تبحث عنها بفزعٍ، من منا يستطيع حمل شكايتها الكثيرة.. آه.. أعتقد أن الذي ضاع له قيمة، أو هي عدوى سارية هذه الأيام، تحرَّك أنت الآخر وابحث، أبحث؟!، وجزعتُ من الهاجس، ودرتُ بوجهي إلى الناحية الخرى، وانصرفتُ لخلوتي المعتادة علي قارعة الطريق.

المنادي «عدس» يصرخ بصوته المشدوخ: (من وجدها، له الحلاوة)، والأطفال يردون عليه: (بالنصف يا عم عدس)، ويهزُّ رأسه مضطراً بالموافقة.

- ما قيمتها يا عم «عدس»؟

- من وجدها، وجد الكنز الذي يغنيه طول العمر.

- سنصبح أغنياء.

- الشرطة لن تعطينا إلا عشرة في المائة فقط، وبخلع الضرس.

- هذا يكفينا.

ودار الفتية والأطفال متفرقين، يبحثون، والاتجاهات كثيرة، وعم «عدس» ينادي بصوته المشدوخ المميز.

قلتُ لأحمد: (يكفيك فخراً، أنك جهرت بحبك لها، وأحسست بغيابها)، نظر في وجهي الجامد، فرقّ قلبي لحزنه، وقلتُ: (سأساعدك)، وكان ينظر إلى الأرض، وخشعتُ لحزنه، وطأطأتُ رأسي، وخفَّضتُ صوتي:

- ماذا كانت ترتدي؟ علامة تدلنا.

- مرغوبة في عشقها، تلبس خُفاً أسمر.

وحزنتُ لحزن أحمد، وما زال عم «عدس» ينادي عليها.

يصرخ سليمان، ويعوي كمن أصابه مسٌّ من جنونٍ، حين لمحني صرخ عالياً، ومسكّ أطراف ملابسي الحقيرة، التي تستر العورة

فقط، وقلتُ له مجاملاً: (ابحث بهمّة)، فوقع من طوله، ورقَّ قلبي لحزنه، وقلتُ: (سأساعدك)، وكان ينظر إلى الأرض، وطأطأتُ رأسي، وخفَّضتُ صوتي، وقلتُ: (ماذا كانت ترتدي؟)، وبدأ يتغزَّلُ في وصف رأسها، كمن يوصف عشيقة له، ونهرته، وقلتُ:

- علامة تدلنا عليها يا سليمان.

- كانت تتحلى بقرط أخضر كبير.

وصرخ، وصرختُ معه، وعم «عدس» ما زال يدور ويلفُّ، وينادي عليها.

الفتاة «إسلام خيري» تنعي بختها المائل، وتلطخ وجهها بأديم الأرض، لمحتُ وجهها المدوَّر، نظرتْ في وجهي، فأخفيتُ وجهي عن عيونها الخضراء، وقفتْ أمامي طويلاً، فانحشر أنينٌ مكتومٌ بقلبي الضعيف، وقبضتُ على خوفي، وخبأته عنها، ما زالتْ تلطخ وجهها بأديم الأرض المعجون بدمعها، فرقَّ قلبي لحزنها، وقلتُ: (سأساعدك)، وكانت تنظر لسواعدي، وقالتْ: (تحمل قربة ماء عذب)، وحملتني دمعة حارقة إلى توجعي، وخررتُ مغشياً علي الأرض، حين أفقتُ وجدتُ» إسلام، وسليمان، وأحمد يلتفون حولي، وقد خرست ألسنتهم، وأنينهم يستنهضني، فنهضتُ، وقلتُ:

- علينا بأولي الأمر، العمدة أولاً.

فوقفنا عند بابه المغلق، فجزع الخفراء، ونهض العمدة من رقدته مرغماً، ولم يرتد عباءته التي تدثره، وقال بصوتٍ ضعيفٍ: (أنا مثلكم)، وصمت فترة، ثم قال بصوتٍ عالٍ:

- علينا بالشرطة.

وحاصرتنا العساكر، وصرخ المأمور في وجوهنا، وقال:

- على المتضرر أن يتقدم ببلاغٍ.

فتقدم أحمد وهو خائف، وتلجلج في كلامه، فعرفتُ أنه لن ينطق كلمة، فقلتُ:

- أنوب أنا عنه.

فحدثني المأمور بعنفٍ، فرضختُ لصوته الخشن، وللصمت.

- هات ما عندك.

- امرأة هي.. لا.. هي فتاة غضّة، ترتدي خُفّاً أسمر، صماء، تبحث عن وليد لها.

وتأخرتُ خطوتين، وتقدم سليمان كالكسيح، وهو خائف، وتلعثم في كلامه، وقلتُ:

- أنوب أنا عنه.

وتوجس المأمور، وقال لي:

- أنت أيضاً، هات من عندك.

- رأسها مميزة، وتتحلى بقرط أخضر كبير، تبحث عن وليد لها، بكماء.

وتأخرتُ خطوتين، وتقدمتْ «إسلام خيري»، ولم تخشَ الكلام، وجذبتني بجانبها، فلمحتُ المأمور يبرطم، وقالتْ:

- تحمل قربتان، واحدة منها لبناً صافياً، والأخرى قربة ماء عذب.

تبسَّم المأمور لنا، واختلطتْ العساكر بنا، وعم «عدس» ينادي بصوته المميز:

- من يجدها، له وسام الشرف.

وخرج الجميع يبحث عنها.. طمعاً، وتقرّباً.

قال طفل:

- لقد رأيتُ امرأة على شريط السكة الحديدية، صماء، فقد ناديتُ عليها كثيراً، فلم تسمعني، والقطار هو الآخر لم يُصفّر، ويسير سريعاً، حتى....، فأغمضتُ عيني. بعدها، لمحتُ خُفّها الأسمر، وسمعتُ صرخة.

وقالت طفلة:

- رأيتُ فتاة جميلة، تشبه امرأة عجوز أعرفها، بكماء، رأسها فاتنة، وتتحلى بقرط أخضر، ورأيتُ القطار قادماً، وأغمضتُ عيني، وسمعتُ صرخة يرددها المدى.

أخرج كل واحد شعلة من بيته المظلم، فالليل طويل، ومشينا على شريط السكة الحديدية، استرحنا قليلاً، فلمحنا على البعد خُفّاً، فهرولنا بالمشاعل، حتى هدَّنا التعب، فاسترحنا قليلاً، وكان بجوارنا قرط أخضر، فقربنا المشاعل، وعثرنا على الرأس.

تركتنا «إسلام خيري»، وحملتْ مشعلها، وأنا خلفها، تسير بتؤدة على القضبان الحديدية، وكانت أيادينا متشابكة، تجذبني إليها، والعساكر والمأمور ينظرون فقط من بعيد، وقعتْ «إسلام» على الأرض فاقدة وعيها فجأة، وأنا مثلها، لكن نظري به بعض النور، فلمحتُ على البُعد قربة ماء، وبدلتُ تعبي بالقوة، وحاولتُ رشف قطرات من ماء القربة، فوجدتُ الماء العذب مختلطاً بالملح والدم، وقالت «إسلام»:

- إنها قريبة منّا.

في زاوية مظلمة سمعت صوتاً واهناً، فقربتُ المشعل، وقربتْ «إسلام» مشعلها، وأحسَّت بالقلب ينبض، حملته، ومرغتْ

وجهها به، وتبسمتُ، والمشاعل الكثيرة تضيء الليل، والقلب صار يكبر، ويكبر، ووجدتُ له باباً، فدخلتُ، ودخلتْ «إسلام» من قبل، والقلب يكبر، ويكبر، حتى دخل كل الباحثين، والمجاملين، وأصحاب القلوب الرحيمة، والرضَّع، والسذج، والعارفين، وقفلتُ الباب بيدي، ولمحتُ المأمور يعضُّ على أنامله، والعساكر يحاولون الدخول، فلم يستطيعوا، فأمرهم المأمور بتصويب المدافع.

تمَّتْ

***

صوتُ المنشدِ

في آخر مرةٍ، غافلتني، وهرولتْ مسرعة، ودخلتِ السوق الذي نمرُّ من أمامه يومياً، كنتُ أشدُّها من جلبابها، فكانت تخشى على الجلباب، وتمضي ساحبة معها كل ما عرفته عن السوق، ذبذبات السوق نغمة مجنونة، تجعل امرأتي ترقص وهي مندفعة بين الحشد، الأجساد لا فاصل لها.

وقفتُ أتأمل نفسي، حان الآن أن أستخلص لنفسي من السوق أشياء أحتاجها.. ولو إلى حين، بعدما دفعتني امرأتي، فاكتمل السوق بنا.

كان بعض الزملاء -قديماً- قد عابوا صمتي، ويدفعوني أن أُلقيَ سلاماً لهم، ولغيرهم، وأن أشتريَ ما لذَّ وطاب من السوق الذي لا أدخله، وكانت نظرتهم تفحصني جيداً اليوم، وتسلب روحي.

لمحتُ امرأتي واقفة في ركن قصيّ عند «نصار»، الذي سلَّط ضوءه على أصابع قدمي المهترأة، وشاهدها مفلطحة، حينما التصقتُ بامرأتي، وعاتبتها، أتى سريعاً بزوج أحذية بكعبٍ عالٍ، وقال:

- خُذ ما يعجبك.

وكل المقاسات مقاسي، والجوارب، والملابس التحتانية، والأقمشة مقاسي أيضاً، فمشيتُ أتفحص نفسي، وامرأتي فرحة.

كان «النصيري»- الجزار- يقف قبالتي، ومعدتي تطحن نفسها، وقال لي:

- خُذ ما يعجبك من بيت اللوح.

قلتُ:

- رأس العجل.

أشار إلى ناحية ما، وكانت رأس العجل مُعلقة.

جاء المُنشد، ورفع صوته، فالتفوا حوله.. رافعين رؤوسهم إلى أعلي ناحية:(وحين يبيعك كل الذي يعرفك، تُعلّق رأسك بين المتاجر، لا تجد الآن من يشتريك، يمر الزبون، ويبصق في مُقلتيك،

يُفجّر فيك البكاء، ويمضي)[*]، وكانت رأس العجل تهتز طرباً، وحين انتهي المنشد، بصق «نصار، والنصيري» عليَّ، وتعجبتُ، وذهب ظني أن هذه الرأس رأسي، ومنسوخة عدّة نسخ، ومعلقة بين المحلات، وكانت امرأتي تتعجب من الصوت الصادر من الرأس المُعلقة، وقالت:

- انتظرني قليلاً

انتظرتُ ما يكفي، ومللتُ من رداء الوهن، والزهق، وعدم الحركة، فقمتُ أبحث عنها، وأصوات الباعة تجعلني أقتات من غيظي، هؤلاء الباعة يستدرجون المجاذيب فقط، وامرأتي في آخر مرة رأيتها ترقص وهي مندفعة نحوي على أصوات الباعة، في كثير من المرات كانت تنسي نفسها في السوق، وتنساني، وبحثت عنها في كل مكان، حتى انفض السوق، فادركتُ- ربما – أنها بضاعة، وأرجو ألا تكون تالفة، وتعود.

تمَّتْ

***

*- مقطع من قصيدة للشاعر\ م. ن.

انتظارٌ

تعوَّد أن يرمي هدومه في أيِّ ركنٍ، بعيداً عن جسده، فيحس بارتياحٍ، ويقفز كفراشة، ويحلق في غرفته، قافلاً إياها، حتى لا يقتحم عليه أحد خلوته، فيضطر لارتداء ملابسه مرةً أخرى، ما أصعب ذلك على نفس قد تعودت على هذا!

من خرم الغرفة الوحيد- خرم المفتاح- تتلصَّص عليه بنت، أو بنتان، كثيراً ما دخل عليه بعض الناس من ذوي الشهامة والأصدقاء في أوقات متفرقة، يتفرجون على جسده العاري، المستلقي في أي مكان، على السرير، أو أرض الغرفة (ما أروع الجسد!) هكذا يقولون، ثم يمضون، والبنتان الصغيرتان لما لهما من محبة خالصة، تتحسَّسان بعض الأماكن، قالت واحدة منهما للأخرى في لحظة ما (أتمنى أن يكون لي) لم أعرف حتى الآن أنها تقصد هذا الجسد فعلاً، أو غيره، وقامت قيامة الصبابة والوجد، ونزعتا عن نفسيهما رداء التمني اللعين، الذي لا يجدي، وتشابكتا بالأيدي، فقام مفزوعاً، ولم يجد شيئاً يستره بعد ذلك، إلا قفل غرفته من الداخل.

بعد أن افتضح أمره، وأمر هذا الجسد، وضعه في سروال، أو بنطال، وقميص، وظل هكذا مدة من الزمن سجيناً لملابسه، حتى جاء صيفه المحبب، فخلع ملابسه على غير إرادته، وبشوق، وتمدد في أرض الغرفة ناسياً أمر الصغيرتين، بل تشجع، ولم يقفل الباب من الداخل، وتعمد كثيراً أن يوارب الباب، لكن الناس قد انشغلوا عنه، وتركوا له جسده قانعين بما لديهم.

***

الغرفة واسعة بعض الشيء، في الزاوية اليمنى سرير نحاس، ينفعل باهتزازات الجسد، فيسمع منه أنيناً، متوجعاً، وبجوار السرير منضدة صغيرة تتناثر عليها بعض الكتب الصفراء، وكرسي يبدو لأول وهلة أنه عتيق، ودولاب يحشو فيه الملابس المهترئة، وبنطال وقميص جديدان، ومرآة عريضة تزيّن مدخل الغرفة، حين تحاول النظر فيها يرتد النظر إليك خاسراً، وحين تدقق أكثر في المرآة عسى أن تصيب منها شيئاً، أو تجد صدى لأي صورة، فلن تجد إلا بقعاً سوداء، وخلف الباب بعض المسامير المدقوقة في الجدار، يعلق عليها ملابسه.

***

على شاطئ البحر، يظل يدور عارياً لا يزعجه أحد، الأجساد هنا عارية، كان في البداية فقط يظل يمعن النظر في أجساد النساء،

لكنه الآن قد احتفظ بكل التقسيمات الملعونة داخل جمجمته، على شاطئ البحر فقط، يظل يدور عارياً لا يزعجه أحد.

***

كان يجب أن يتخلى عن هذه العادة إلى الأبد. كيف؟ وقد تعوَّد عليها منذ فترة طويلة، لم يمنعه شيء حتى الآن عن إظهار هوايته، إلا بعض المناسبات الكريمة.

***

أنا جاره الذي يسكن بجوار غرفته، أينما يسير فأنا وراءه، لستُ أدري سبباً لذلك، ربما أكون شغوفاً لدرجة الجنون بأي جسد، ربما، أو ربما قد نظرني مرة ذات صباح نظرة قد خلعت عني ملابسي، هذا الخيط من الجنون هو الذي يربطني به.

***

يتلصَّصُ عارياً، وعلى أطراف أصابعه، ويستتر بظلمة الليل، فلا يلمحه أحد وهو داخل إلى دورة المياه لقضاء حاجته، هل يخاف الليل، أم يخاف من أن يلمح جسده أحد؟ أيخشى الناس بالليل فقط؟ عين النهار فضَّاحة، يواري سوءته بملابسه المهترئة، هل يدرك أن عيون الناس هنا تلمحه كلما غدا أو راح؟ لا يعني هذا بالضرورة أن يتخفى من الناس، أو يخفي شيئاً كجسده، يستطيع

الأعمى أن يعرف موضعه، لا أحد يجزم أنه مع أو ضد، سمعته مرة وأنا أخطو خطوة خارج غرفتي في بداية سكني لهذه الغرفة: (إن تركت الناس، لا يتركوك).

***

البارحة فقط، نظرني جيداً، وخبط بقدمه موضع غرفتي، ففتحتُ له الباب منشرحاً على غير عادتي، قال: (هل أجد عندك..؟)..

ولما رآني منشرحاً على غير العادة، ولم أدعه يدخل، خطى بخطواته الفقيرة عائداً، وقبل أن يدخل، التفتْ إليَّ، لكنني أجزم أن بعينيه كانت تتكور بعض الحصى، مسكها قبل أن ينفرط عقدها، ولم تنحدر دموعه إلا حينما أصبح وحده داخل غرفته، فكانت حصوات عينيه تقع في أرض الغرفة، فأسمع لها ارتطاماً يوشك أن يفقدني القدرة على الكلام أو التركيز، غير أنني في هذه اللحظة، كنتُ أشتهي فقط البكاء في حضنه، يا إلهي! لم أتعود منه مطلقاً أن يخطو إلى غرفتي في أي ساعة من ليلٍ أو نهار، ليست غرفة جيدة على الإطلاق، هذه حقيقة، كيف نسيتُ أن أدعوه للدخول، وهو السباق إلى قرع باب غرفتي؟ كان يجب أن يدخل ولو غصباً، هذا الرجل له من الأنفة والعزة ما يجعل الناس تخشاه، آه، لقد تذكرتُ، لقد رأيته يحك جلده بيديه.

***

في منتصف ليل اليوم، سمعتُ توجُّعاً، فاستطلعتُ الأمر، ووجدتُ كثيرين حول بابه، وقد ترك باب الغرفة مفتوحاً، ليس بإرادته، لأنه كان مشغولاً جداً هذه المرة، ولم يكن خائفاً، ولم يشعر بأحد، فقد بدأ ينهي هوايته إلى الأبد، كان يحك جلده، ولحمه بقوة، ويظفر بهما، ويضعهما بجواره على السرير، أو أرض الغرفة، حتى باتتْ عظامه هي كل ما نرى، واستراح في نوم عميق، لعله قد استراح في نومٍ عميقٍ، وظل هكذا مدة، لم يقدر أحد أن يزعجه، أو يتلصص عليه، حتى دخلتْ بعض القطط الضالة، تنشد جلده، ولحمه، دون أن يقول لها كلمة، وقد باتتْ رائحة الغرفة نتنة إلى أبعد حد، فأبلغنا الإدارة الصحية، ووقفوا أمام غرفته أيضاً بإجلال واحترام، وسكبوا الكيروسين، وأشعلوا في غرفته النار، حتى أتمَّتْ النار عملها المثير، استرحنا قليلاً، وفرحنا، وقد قفزنا كالصغار على نحو ما، وأنه قد بات لنا أن نكون غير خائفين هذه المرة.

في هذه اللحظة بالذات، ابتدأنا نعاني هوايته، واستلقى كل منَّا عارياً تماماً في غرفته، منتظرين النار التي أفرحتنا .

تمَّتْ

***

السدودُ

ما زال البرقُ يخطف بعض الظلمة، ويباغتني برجفةٍ، ربما يقصدني، وربما يُصبح بشارةً أو وعيداً، ستختفي الظلمة عما قريب، ويهت البرق، وسيعود النهار حتماً، هذا رجائي، فعدتُ للدار بعدما توجستُ، وارتجفتُ، ورميتُ ما أنا فيه بغطاءٍ ثقيلٍ.

ما إن صحوتُ من نومي بعد طول الرقاد، حتى دنوتُ من أمي، والتصقتُ بها، ننظر للشارع الخالي، ورذاذ المطر يهبُّ على وجهي عنوة، تحسَّستُ ساعتي بعد مدة، فكساني الحزنُ والغمُّ برداءٍ ثقيلٍ، وفتحتُ النافذة الأخرى، فأيقنتُ أن السماء تغسل أرضيتها الرمادية، الليل هرب من الصبح، والصبح وقفٌ على ليل، والليل والصبح في هذه اللحظة شيءٌ واحدٌ: (الوقت متأخر، لا عليك) فارتديتُ ملابسي، وهممتُ بالخروج، وفتحتُ بوابة الدار، نظرتُ الطريق، الطرق موصدة أمامي: (لن أصل إلى ما أريد) فرضيتُ كَرهاً بالجلوس، والنور الطبيعي والصناعي قد ذبلا، وانطفأ برذاذ المطر.

أشعلتُ سراجاً لا يُسمن ولا يُغني، وتحلقنا حوله، وملأنا بطوننا، عقارب الساعة هاربة، ومختفية، لا أحد منا يجيد الحكي، ولا يملك غريب اللفظ، أو النكات، الكل يدور، ويبحث في وجه الآخر عن شيء نغلّ به الوقت، ونزج به قرباناً لصبحٍ آتٍ، ندور جميعاً بين الغرف، ملَّ منا الدوران، ذبالة ضوء السراجة لا تفي بقراءة سطور أي كتاب، فطللتُ بجذعي من النافذة، المطر يهبّ على وجهي، الذي اكتسى ببرودةٍ مبهمةٍ.

***

النسوة يحملن الجرار المملوءة بالماء السماوي، يذهبن إلى ترعة الباجورية، ويعدن سريعاً، ليحملن غيرها، النشاط يدبُّ في أجسادهن، ولا يخجلن من كشف بعض عوراتهن، والرجال في قعر البيوت يتسامرون مع ذكرياتٍ شحيحة، ودخان النرجيلة يغطي حالهم الممزوج بالسكون، صنعتُ مركبةً ورقيةً، وألقيتها في بركة ماء، لكنها لم تتحمل عُري النسوة في شارعنا، وانتفخت أحشاؤها بالماء، ومارت، ولم أجد لها أثراً.

شارعنا -شارع النصارى- ينخفض حيناً، ويرتفع حيناً، حين ارتفع بالماء شبراً، تفتق ذهن الرجال والنسوة بإقامة السدود، كلٌ على حسب مساحة داره، وبإقامة السدود، أو الحدود، بدأت

الشتائم، والاتهامات، واللعنات، لا يوجد بدارنا نسوة غير أمي العجوز، فوقفتُ أرقب النسوة، وهن يصنعن السدود:

- يا آمال، كمّلي السد للآخر يا لئيمة.

فأكملته مرغمة، والمطر المنهمر لا ينقطع، وبدأ الرجال والنسوة يخافون تصدع السقوف الخرسانية.

نظر أبي ناحية اليمين، وناحية اليسار، ثم خرم سدّاً من السدود، والسدّ الثاني ينظره، وينتظر أن تدسن النسوة عليه وهو فرح، صعدنا- أنا وأخوتي- لإزاحة الماء من السطح، وقلتُ:

- النهاردة الجمعة.

- يعني إيه؟

- القيامة.

- مش فاهم!

- سنموت بالماء.

- مفيش فايدة من نشل الماء.

فنظرتُ من فوق السطح الخرساني إلى أسفل، فوجدتُ السدود كلها قد انمحتْ.

***

هامش :

حين كفّت السماء عن الأرض، وقفلت صنبورها، واطمأن الناس بشارع النصارى، كفّت أياديهم عن لملمة الماء من أعالي السقوف، ونزلوا مهرولين إلى الشارع، يقومون بعمل السدود مرة أخري، وأبي لن يستطيع أن يخرم أي سدٍّ، هذه المرة.

حينما كانت السماء قطعةً من ماءٍ عالقٍ، وحينما وجدتُ الأرض لا تبلع الماء، أدركتُ أنه لا بدَّ لي من عمل مركبةٍ شراعيةٍ، ولكنني خشيتُ- فقط- على نفسي من سوء الظن والتأويل المفرط، وأنى لي بالخشب والوقت، فأيقنتُ أني عاجزٌ، ولم أبدِ رغبتي لإخوتي، وأهلي، وسكتُّ.

تمَّتْ

***

قصةٌ لم يكتبها الكاتبُ

حملت السيارة الميكروفون، ودارتْ في الأزقة والحواري، معلنة (مات الكاتب)، وقبل أن يُعلنَ الخبرُ في مساجد القرية، كانت مديرة أعمال الكاتب قد خبطتْ على الشقة المكونة من غرفتين وصالة، وسلّمتْ «أحمد» الصندوق المزخرف، المربوط بشريط أسود، كان صوتها محبوساً، مرتجفاً، والحروف مكسورة، ومسكونة بالحزن، ولا تستطيع تكملة جُملة صحيحة، والعين تسحُّ من الهواجس والأفكار، لكنها قالت بصعوبة:

- لقد مات!

لم يدعها «أحمد» للدخول، وهي أيضاً، لم تبد أي اهتمام، وسارتْ مهرولة نحو الشارع الأصمّ، كل ما كان يشغلها في ذلك الوقت: إعلان كافة وسائل الإعلام، والترتيب لجنازةٍ تليق بالكاتب، وتنفيذ وصياه بكل دقة.

كانت «أم أحمد» واقفة أمام الباب، تنظر بدهشة مفعمة بالسؤال عن محتوى الصندوق وراسله، سار «أحمد» خطوات قليلة بتمهُّلٍ شديدٍ، ومدَّ يديه بالصندوق لأمه، وقبل أن تلمس الصندوق، أعلنتِ المساجد (مات الكاتب) شهقتْ، وهرولتْ إلى غرفتها، وبحثتْ عن شريطٍ مسجلٍ، محملاً بنغماتٍ راقصةٍ، مسكته بقوة، وتذكرتْ رقصتها يوم الدخلة.

وضعتِ الشريط، وانسابتْ النغمات الراقصة، وانتشتْ من الرقص، وأحمد يتعجب من هذه النشوة العارمة!

- ارقص يا أحمد.

وجاوبها، ورقص مستسلماً لرغبة أمه، كان بين السؤال، والدهشة، وبين الرقصة المجنونة، لم يشاهد أمه في حالة كهذه أبداً، سقط جسدها من الإعياء، فحملها على سريرها، وحاول أن يُسكتْ هذه النغمات، لكنها قالت:

- هذه رقصة الموت يا أحمد، أصل أبوك مختلف، كاتب!

بعدها بقليل، قامتْ متلهفة، وفتحتِ التلفاز، كانت الإذاعات المرئية والمسموعة تبث شريطاً عن الراحل، وكان «أحمد» منشغلاً بمحتوى الصندوق من الداخل، نادتْ عليه أمه، فأسرع إليها..

- أحمد، هل كان غنياً؟

- نعم، لقد كان.

- الآن، ستحصل على تعويض ما جرى لك، وستبدأ حياة جديدة.

هزّ رأسه، وانزوى بالصندوق داخل غرفته، ولم يقدر على فتح الصندوق إلا بعد أربعين يوماً.

من الذي منعه كل هذه المدة من فتح الصندوق؟ هل هو قداسة الموت؟ هل ظلَّ مدة الأربعين يوماً ليتأكد من موته؟ ربما!.

كل هذه الأسئلة متعلقة بأحمد، الذي ظلَّ خائفاً من الصندوق، ولم يقترب منه، كان عاجزاً عن معرفة ما بداخله، حتى إنه لم يستطع أن يرمي الصندوق في مكان لا يستطيع إدراكه مرة أخرى، الصندوق أمامه على المكتب، هل كان خائفاً من المعرفة، والمجهول؟ ربما! .

في لحظة غير مناسبة، فتح الصندوق على غير إرادة منه، خطف بصره بريق الذهب الخالص، وارى رأسه، ومدّ يديه المرتعشتين داخل الصندوق، تحسسه، وقبضتْ يداه على قلادة، تأملها قليلاً، وأُعجب بها، لكنه وجد أسفل القلادة كتابة محفورة (وسام العلوم والآداب) رماها جانباً، مبتسماً ابتسامة ساخرة، بل نصف ابتسامة، ثم بدأ يسأل نفسه بصوت مسموع: (لماذا؟) كان السؤال

صادقاً، خارجاً من ذات بِكر، لم تنشغل مطلقاً بالسؤال، كان هذا السؤال هو البداية له، خرج من نفسه ولنفسه، انتبه قليلاً، وأدرك أنه في منتصف الطريق، أو أنه على باب جهنم، وانعكس هذا على سيره ذهاباً، وعودة داخل غرفته.

لم يحاول «أحمد» الإجابة على سؤاله الأول، كان منشغلاً بمحتوى الصندوق المزخرف، أرهف السمع جيداً، فالتقط بعض خطوات تمشي بخفّة متناهية، فتح باب الغرفة بسرعة، فوجد أمه تتلصَّص عليه، انكمشتْ على نفسها، ولم تستطع الكلام، نظر «أحمد» إليها، ولم ينطق بكلمة، فانزوتْ داخل غرفتها مرتجفةً من المباغتة، وأحسَّتْ بضعفها لأول مرةٍ.

حاول «أحمد» أن يصنع كوباً من الشاي لنفسه، لأول مرّة يخدم نفسه، كان مذاق الشاي مختلفاً هذه المرّة، ارتشفه بتلذُّذٍ، ثم اختلس النظرات إلى الصندوق، حين انتهى من آخر قطرة، مسك الصندوق، وأفرغه على الأرض، فلم يجد غير رسالة، قلّبها يميناً وشمالاً، وقال:

- كلام. كله كلام في كلام.

وحاول أن يمزق الرسالة، لكنه لم يستطع.

مسك الرسالة، وقبض عليها بيديه، وأدرك لأول مرة قوة الرسالة وهي مُقفلة، وفكّر قليلاً، وحدّث نفسه (فَتْح الرسالة تعني موتها، أي رسالة لا تعنيني، إلا هذه الرسالة، التي تخصني بالذكر، لن يحدث شيء لو فتحتها) وقال مشجعاً نفسه:

- إنها رسالة ميْتٍ!

وفتحها بلهفة.

(الرسالة)

أحمد...

اعلم أني تبرعتُ بمالي كاملاً. أنت الآن وحدك، لا تملك غير نفسك. كن صادقاً معها، واخرج عن إطارك، الذي صنعه لك الناس، ولا تجعل سلطةً ما تحجبك عن ذاتك، أنت الآن سيد نفسك، وأخيراً، إذا فهمت كلامي، فاقرأ على روحي الفاتحة.

أبوك (الكاتب)

ترك «أحمد» الرسالة مفتوحة، وذهب لأمه، متعثراً بأحلام، وأسرار صغيرة، تخصه وحده!

- ما لك؟

- لقد تبرع بماله كاملاً.

- عملتها يا ابن الكلب.

وهاجتْ، واكتست بالدموع والصمت، تركها «أحمد»، وانزوى بغرفته، لا هو حي يُرزق، ولا هو ميت، وليس لديه شاهد قبر مثل أبيه.

تمَّتْ

***

الحِكايةُ الثانيةُ

قال أبي رواية عن أبيه: إن جدي الأكبر كان طوّافاً في البلاد، يتقلب فيها، وتتقلب فيه، كان يسقي الناس من الونس الليلي، وحكايات رحلته، وكان يطفئ نار الشك ببرد اليقين، وهو من عائلة كبيرة في جنوب النهر، لكنه في صباه، نادى عليه من ينادي، فخرج ببغلته، وثوبه الخشن، وطاف في أرض الله الواسعة، ترفعه بلاد، وتحطُّه بلاد، حتى نفقتْ راحلته، وهو في دلتا النهر، رأى البقعة الخضراء، فابتسم ابتسامة رضا، وظل فاتحاً روحه علي المكان، حتى طلبه النعاس، لمّا أطل الثلث الأخير من- الليل- الكون المليء بالنجوم، كانت النجوم قناديل متدلية له، فظل يتحسس المكان.

استيقظ، وهو يشير بأصابعه: (هذا بيتي) لقد نزلتْ على شفتيه حروف الرحلة الثانية، فاحترقتْ بنطق الكلمات.

لمّا تنفس الصبح، وبلله الندي، هزَّ طوله، وشرع يجمع من فروع الأشجار ما نشف منها، وأقام أعمدة بيته الأربعة، ثم ضحك فهزّتْ ضحكته أوراق الأشجار، فتساقطتْ، حتى فرشتْ أرض بيته، لمحه

شخص مقيم في الناحية الأخرى، فذهب إليه وألقى تحيته، وحِملاً من البوص، ثم هرول الناس إليه من كل مكان، ليشهدوا البيت الجديد.

قالت جدتي- من ناحية أمي- قبل موتها بأسبوع واحد: إن جدي الأكبر كان عبداً حبشياً، خطفه الخطافون من عائلته، وهو صبي، لكنه كان قد تعلّم الأسماء كلها، وقد عرضها على من اشتراه، لكنه أبى واختار- من بينها- له اسماً، وقد ورث بنوه هذه الأسماء، وكان رثّ الثياب، أشعث الشعر، يتساقط من رأسه القمل، واشتغل كلافاً لدى شيخ البلد.

ابتسم أبي، وهو يحكي: كيف أعجب شيخ البلد بفتوة جدي الأكبر، حين استطاع أن يكسر المحظور، ويخرج بعد المغرب، رغم قسوة الهجانة راكبي الجمال وحاملي السياط، وقد تحداهم، واستطاع أن يمشي مع القابلة- التي كانت في بيت شيخ البلد- في زقاق الجامع المظلم، حتى بيتها.

قالت جدتي-من ناحية أمي-: إن جدي الأكبر كانت ملامحه مثل ملامح الهجانة، ولغته كلغتهم، وقد دعاهم، فاستجابوا له، وحينما علم شيخ البلد، بنى له بيتا كبيوت البلد، وزوّجه بامرأة بيضاء، وكان يرسله في المهمات الليلية الخطرة.

تسابق أبي مع أخوته، وأبناء عمومته حينما وصلتْ إليهم رسالة تخبرهم بزواج أحد أفراد الفرع الجديد من العائلة، والمكتشف منذ فترة قليلة، وجهز الجميع بغالهم، وزاد الرحلة، وهدايا العروس، وفي الحلقة المقامة للرجال، كان الضحك يتشكل طيوراً ملونة، تطير فوق الرؤوس، تنقرهم واحداً تلو الآخر، ثم تغرس الفرحة والمحبة في أجساد الجالسين.

قال أبي بصوتٍ هامسٍ، فيه كثير من الحياء:

- لماذا أعمار أجيالنا تختلف عن أعمار أجيالكم؟!

ضبط كبيرهم عمامته فوق رأسه المكورة، وتنخنح، فخشعت الأصوات في حناجر الجالسين، وابتلعوا همساتهم الجانبية، وتعلّقتْ عيونهم على شفتيه:

- أغلب الظن: أن جدنا وجدكم قد تزوج عندنا أولا، ثم تزوج عندكم، وقد تشابهتْ أسماؤكم وأسماؤنا، حتى لون بشرتنا واحد.

عدّل الأستاذ مختار -كما يطلقون عليه- من ياقة قميصه المتسخة، ورفع صوته الناعم، وكفه الأيمن بمحاذاة صدره، ورفع كتفه الأيمن، وصعر خده جهة اليسار قليلاً، وفتح عينه نصف فتحة، وقال:

- بحساب عمر الأجيال تبين: أن جدنا وجدكم تواجد هنا أيام حكم «محمد علي باشا»، وأنه جاء من الجنوب، قاصداً بيت الله

الحرام، لكنه استقر فترة هنا، وتزوج مرتين فقط.. أمنا، ثم أمكم، وبعد أن رأى عياله، تركهم خلف ظهره، ولبى نداء ربه، ولم يعد من أرض الحجاز، ومنذ عشر سنوات فقط، كانت تصلنا من أرض الحجاز مبالغ.. نظير إيجار بيته المجاور للكعبة.

اكتستِ الوجوه السوداء بعباءات الفخر، وتمايلتِ العمامات البيضاء ذات اليمين وذات الشمال، ودار مبسم النرجيلة بين الشفاه المتشققة مع أكواب الشاي.

قال عمي: كان جدنا الأكبر عريض الصدر، وكان شعر صدره ينفذ من قميصه، وكان إذا حطَّ كفه على أعتي الرجال رخى، وكان يحفظ الأمانات، وقد خرج مع زوجته إلي سوق بعيدة، يجر نعجتين، وكان الحال قد ضاق به، وبغيره، فقد شحَّ ماء النهر، كان سارحاً في الملكوت، فتاهتْ زوجته منه، أو هو الذي تاه منها، لكنه ظل يبحث عنها أربعين يوماً، أصابه خلالها الوهن، ولمّا اتهمه أهلها بالإهمال في حفظ الأمانات، اشتعلتْ رأسه بالفكر، وأقسم ألا يذوق طعم النوم حتى يلقاها، وكان يمشى على وجهه في البلاد، ضارباً بكفيه رأسه التي تمايل، كأنها في حلقة ذكر، يمصمص شفتيه، ويرفع كفيه بالدعاء، ويحفر في الأرض بعينيه المسهدة الحمراء.

نادي عليه النعاس في بقعة لم يعرفها، ونام ثلاث ليال، ولمّا نادى عليه الصحو، وجدها على شماله، ولمّا أحسَّ بألم في ضلعه الأيسر، ضمَّها إليه فاستراح، بعدها توضأ ثم صلى، ومن فرحته: أقسم أن يدخل بها القرية وهي فوق كتفه، ولمّا وصل إلى مدخل القرية، خذلته، فقطع جريداً من نخلة عالية، وهو واقف علي الأرض، وهمَّ أن يضربها، فأشارتْ إلى عشته بجوار النهر، وتبسمتْ، وتمايلتْ بدلال وهي تسير، حتى جلستْ، وجلس بجوارها، والغضب يصعد من صدره إلى فمه، فيتناثر حوله رغاء، ولما لم تجد حيلة في الكلام، جمعتْ في حجرها بعض الحصى، وجلستْ على مبعدة منه، وبدأتْ تحذف الحصوات، الحصوة الأولى، سقطتْ فوق بطنه، فتنهد، ثم حذفتْ الثانية، فلمستْ وجهه، وجف الرغاء، ثم حدفتِ الثالثة بين رجليه، فابتسم، بعدها تكومتْ الحصوات وأحاطته، فقهقه عالياً، وأحس بالبهجة والوصال، ولما زال الغضب منه، كانت قد وصلتْ إليه زحفاً، وتجلّتْ فوق الأرض دوامات تثير الغبار، وتمنع الرؤية، ورفعتْ الحصوات عنه، ثم شدتْ شعرة طويلة من شعر صدره، فابتسم، وأحس برعشة، وركنتْ رأسها على كتفه، وقالت): آه) في هذه اللحظة، مدت السماء كفها، فاحتضنت الأرض، وتوقفتِ الشمسُ، وبدا الوجود منشغلاً، وصامتاً، يراقب في حذر، وماءتْ نعجة في الطريق، ولما أدرك أن الكون معه، تنهد قليلاً، ثم قال بصوتٍ ناعسٍ:

- أقسمتُ أن أدخل بك القرية على كتفي.

فابتسمتْ، وهي تعدّل سروالها، فأيقن في ساعته أنها قد دفعتْ ثمن قسمه، وكان في حيرة من أمره، متأرجحاً بين الوفاء والحنث بالقسم، وتجلى أمام عينيه في الشاطئ الآخر: تيساً ينطح نعجة، وزوجاً من الحمام يتراقص، فلم يقو على جمع ذاته المتفرقة، ونكّس رأسه، ثم تعكز على عصاه، وسارتْ خلفه، وحولها بعض الكلاب التي تعزف بنباحها موسيقى العودة.

دخل داره منكساً رأسه، وبُعث الرجال من رقدتهم متجهين إلى بيته، وزغردتْ بعض النسوة حتى مطلع الفجر، وظل في داره الرجال، حتى انقضى الصبح والضحى، وقرب المساء، وانخطفتْ إليه كل الناس، ولما غربتِ الشمسُ، غربتْ عيناه عن مستقبليه من الرجال، وبدأ يذكر بلسانه المتلعثم خطيئته الكبرى: أقسم أن يدخل بها القرية وهي فوق كتفه، لكنه لم يفعل، رفع كفيه للسماء، وتمَّتْم، وبكى، وأنزل كفيه ليصافح رجلاً كبيراً، ثم اهتز جسده، وانتفض، وجرى من أمامه من جرى، ثم بكى، وحرك لسانه مستغفراً، ثم جرى بكل عزمه حتى أصبح في الخلاء وحده، ولما اختلى بنفسه حيناً، رفع يده-رغماً عنه- إلى طوقه، فمزق آخر ثيابه، والليل قد ابتلع القرية في جوفه الضيق، وخرستِ الكائناتُ، فبدتِ البلادُ كلها كقبرٍ كبيرٍ، وتثاءب الليل، وأذَّنت الديوك،

ففضح النهار وجه البسيطة، وانفرجتْ آخر ستائر الليل، بعدها بقليل وجده الناس ممدداً، ورأسه في اتجاه الكعبة، وقد غطتْ الأشجار جسده، وكان جسده ما زال طرياً.

***

بعد أن استمعت إلى الحكاية الثانية، رفضت الحكاية الأولي، كانت الحكاية الأولي تضفي علي جدي هالة قدسية، تجعله كائناً خرافياً، وأنا أود جدي بشراً من لحمٍ ودمٍ؛ حتى أستطيع أن أنتميَ إليه بفخرٍ.

تمَّتْ

***

ثُقبٌ في بطاقتي الشخصية

مررتُ بتجمع فريد، له رائحة السمر المملوء بالحكايات الفاجرة، فأردتُ مشاركتهم، أبعدوني وكأنهم لا يعرفونني، لا يهمُّ، سأحاول مرةً أخرى، فأبعدوني بقسوة، عاتبتهم، فقالوا كلاماً، وأشاروا على جسدي.

***

كثيراً ما يُحمّلني الوهم ما لا أطيق، وحين سكنتْ بشارعنا كانت تمر صامتة، ولها من الوداعة ما يلهب الجسد، ويبقي بالذاكرة، كانت كلما تمر يتشبث شعاع بصري بملابسها، وخطوها، لكنها كانت تمر صامتة، حاولتُ مراراً أن أستنطقها، لكنها كانت تمر صامتة، ربما يكون لها الحق في عزوفها عني، ربما، لكنها كانت تمر، وهذا هو المهم.

كنتُ يوم الجمعة بالتحديد، والتاسعة مساءً بالتحديد، واضعاً أمامي صورة لم تفارق مخيلتي:

هي وهو قد قطعاه بالسكين، ووضعاه في أكياس النايلون، وقد أكلتِ الكلاب اللحم، إلا الرأس، فكان عليَّ أن أقفَ وقفة مع الذي في دماغي، وإذا بي أراني وسط مجموعة لا أعرفهم، يطوفون حولي، ويضربون قفاي، ويستمتّعون بلكزي، وارتاح حين يختفوا، أخيراً، تمسحت بهم، وقلتُ: (...)، لكنني سمعتُ صوت أمي، وهي تقول لأختها:

- ممسوس.

- اذهبي به إلى الشيخ فاتح.

فذهبتْ أمي إليه، واستحضرته إلى هنا، تعوذ الشيخ، وتفل، وقرأ، وأكل اللحم وطيور البيت، وحصل على أوراقنا النقدية، وأعطانا بدلاً منها حجاباً أُعلّقه فوق رقبتي، أو رقبة أمي، وجلب لي- في آخر مرة-النسوة العجائز، والدفوف، والطبول، والبخور، فما كان مني إلا أن خلعتُ أرديتي كلها، فاختفين وراء الدفوف، يتلصَّصن على ما يشبع ذكريات قديمة، محرمة الآن.

في دماغي صور كثيرة تجعلني عُرضة للبكاء بلا داعٍ، رغم عدم استجابة جوارحي لهذه الصور، ارتعشتُ، وارتعشتْ أطراف يوم الجمعة

بالتحديد، والتاسعة مساءً بالتحديد، وقمتُ أتحسس مذياعي، ضابطاً المؤشر على محطة معينة، معروفة لدي، دون تسميتها، منعاً للإحراج.

- خالتي فين؟

ارتجفتُ، واستدرتُ للخلف، فتبسمتْ، قلتُ، وأنا أحاول ضبط مؤشر مذياعي:

- أمي؟

هزتْ رأسها الصغير، وكانت واقفة، ساندة جسدها على طرف باب غرفة مكتبي، ويدها الأخرى على الطرف الآخر، وكأنها تمنعني الخروج المباغت، وقد شكلتْ بقدمها اليسرى مثلثاً مع القدم اليمنى الثابتة، مما جعلني أتفرس في جسدها، ويدي ما زالتْ تبحث عن محطتي الإذاعية، وقلت لها:

- لم أرها منذ ساعةٍ.

وكانت عينها مثبتةً تجاهي، ووالدي بغرفته يقظاً، يحاول النوم، أين أنت أيها الشيطان؟ كن ثالثاً: (افعل كما يفعل الناس، أخاف أن يصحو والدي، اجعل الباب مفتوحاً، الباب مفتوح فعلاً، وتمسك ناصيته، ووقفتها تمنعني الخروج، حاول جذبها إلى الداخل)، أنفقتُ وقتاً طويلاً حتى نطقتْ أخيراً، وأنا ما زلتُ أحاول ضبط المذياع.

- السبورة بتاعتك؟

- لأخي.

قلتُ لها، وجوارحي متلعثمة:

- بتذاكر؟

- أنا مؤلف.

- مؤلف؟

تركتُ المذياع، ولهثتُ أبحث عن بعض كتبي، فتزحزحتْ إلى الداخل قليلاً، وبينتُ لها اسمي الضائع وسط لوحة كثيرة الألوان، انصرفتْ سريعاً عن كتبي، ورجعتْ إلى الخلف، ووقفتْ وقفتها.

- خالتي نايمة؟

- لا.

- أومال مين اللي نايم؟

- والدي.

- نايم بدري ليه؟

(أيها الشيطان، ساعدني، اخطفها، الرجل الذي يخطف امرأة رغماً عنها تُحرم عليه، ويعيش منبوذاً دون طقوس عشيرته).

- عاوزة أمي ليه؟

- تاخد فلوس.

أخذتُ النقود مرتجفاً، وسارتْ حتى وصلتْ إلى الباب الخارجي.

- اقفلي الباب.

حين عادتْ أمي، أعطيتها النقود، وعاتبتها أن بابنا مفتوحٌ لكل من هبَّ ودبَّ؛ فضحكت، فقمتُ خارجاً، أحاول قفل الباب بقوة غضبي، فلم أجد أي أثرٍ لبابٍ، وأننا نعيش في العراء منذ مدةٍ طويلةٍ، وتحسستُ صدري؛ فوجدتُ قطعةً من جلد الماعز تسترني.

تمَّتْ

***

ذراعٌ يحملُ الفاكهةَ

(دثريني) ولم يكن يحلم إلا بدفس جسده كله تحت غطاء الدفء، فأودع جسده أمانة ليد اللحاف، ونام تحت طراوته، وقد شدَّه، حتى صَّم أذنيه عن الدنيا، وكان قد دخل على زوجته حاملاً برودته في هذه الليلة، لكنها حين رأته داخلاً لا يحمل أي شيء، وهي التي تعودتْ منه أن يدخل بكيسين من الفاكهة بدأتْ تسخِّن دمه البارد، لكنه ظل تحت غطاء الدفء بلا حراكٍ، صامتاً، وعازفاً عنها، قالت:

- لا فائدة فيك.

ساعتها فقط أدرك سباب زوجته له، ولأبيه الذي تدثر بالتراب، وعيَّرته بما يملك في هذه الدنيا، وإن الرجال الذين يملكون ما يملك أصبحوا في (العلالي)، وقالت:

- خائب، طول عمرك خائب.

- أملك الكثير يا امرأة.

وحاول أن يرفع إحدى يديه ليلطمها -هي الشتامة- فمسكتْ بلطة حادة، وقطعتْ ذراعه، صرخ فيها، وفي نفسه، وارتدى سترته تاركاً زوجته تغلق كل الأبواب أمام وجهه، أنا أملك الكثير يا امرأة، وغداً سترين، لكنه حين رأى ذراعه المقطوعة، وتحسس موضعها، بكى.

***

حمل ذراعه، وسار في هذه الليلة الباردة، يبحث عن مأوى، يدفس فيه جسده كله تحت غطاء الدفء، أخطأتُ حين تركتُ البيت، كنتُ أملك الكثير، ذراعي مقطوعة، وأنا في الشارع، كنتِ يا زوجتي تتباهين بذراعي أمام الجيران، أعرف ذلك جيداً، لا فرق بينك وبين أي امرأة الآن، لا أطيق حمل ذراعي المقطوعة، نعم، لا أطيق، ارمه، واسترح، وامرأتي ماذا أقول لها؟ قل لها أي شيء، هي الآن تحكم غطاء الدفء فلا يتسلَّلُ البرد إلا لي، آه، لو يأتي أحد أتسامر معه لأنسى ذراعي والبرد! ظل هكذا مدة يبتهل للبرد أن يترك عظامه، حينئذ فقط، أدرك أن برودته جاءت نتيجة ما يحمله ذراعه، الذي تتباهى به وزوجته، وساعتها فقط أعلن على الملأ: أنه سيترك ذراعه لأي عابر سبيل.

***

حين رآني قادماً قابلني بترحابٍ، وأثنى عليَّ، وكنتُ قد حييته بأكثر من تحية، عسى أن يتركني في هذه الليلة الباردة أرجع لأولادي، وحلف بأغلظ الأيمان أن أتسامر معه، حتى تنتهي هذه الليلة الباردة، رفضتُ باستحياءٍ.

- أم أولادي تنتظرني.

- إذا كنت مستعجلاً، خذ هذا، وأرحني منه.

فقررتُ أن أرجع لأولادي، حاملاً أي شيءٍ، ترددتُ، وأنا أمدُّ يدي إليه، قال، وهو يربت على كتفي، ومستعطفاً إياي:

- خذه لك.

ومضى في طريقه الذي تعوَّد السير فيه.

لم أتعود من هذا الرجل- وأي رجل- هذا الفعل أبداً، ربما قد أحسَّ بحاجتي أن أسدّ عين زوجتي، ربما قد يكون غاضباً هذه الليلة، لكني سأدخل على أولادي بشيءٍ عظيمٍ.

***

عاد الرجل بدون ذراع، وبعد انقضاء الليلة الباردة إلى البيت، وهو خائف من زوجته، فوجدها على الباب منتظرة تودتْ إليه عسى أن يغفر لها زلتها، اطمأن إليها قليلاً، وطلب قبلة، لم تحس

بنشوة، فجزمتْ أن شيئاً قد تغير، فظلتْ تمعن النظر فيه، وكان قد فرد ذراعيه -ذراعاً واحداً- لتدخل في حضنه، فدخلتْ، لكنها أدركتْ ذراعه المقطوع، فسألته:

- قد تركت ذراعي لعابر سبيل، حتى لا يحدث بيننا مكروه.

فلطمتْ خدها، وشّقتْ جيوبها، وتعرتْ أمام الجيران، وأحستْ ببرودةٍ تسري في عروقها، وجيرانها ينظرن إليها ملياً، وهن ضاحكاتٍ.

***

لففتُ ذراع الرجل بورق، وعدتُ للبيت، وحين رأتْ زوجتي ما أحمله، قالت:

- ياما جاب الغراب لأمه.

- العين بصيرة، واليد كما تعرفين.

وفتحتِ اللفة بلهفة.

- هذا ذراع إنسان، لا يأكل، ولا يطبخ، ما فائدته إذن؟

فرح أولادي لحظة، ثم ناموا مرعوبين، زوجتي قالت:

- أرجعه لصاحبه.

فدخلتُ الغرفة، وقفلت بابها، وخلعتُ ذراعي، ووضعتُ مكانه ذراع الرجل.

***

نزلتُ بعد يومين سوق (الروبابكيا) أبيع ذراعي، فليس لي به حاجة الآن، وقد استبدلته بأحسن منه، وجلستُ على قارعة الطريق.. بداية السوق، ينظرني المارة، الذراع جيد، نعم، جيد، مالهم لا يفهمون؟ وقف واحد، اثنان، مائة أمامي يطلبون شراء الذراع، لا يلتصق، فيمضون لاعنين كل أصحاب الأذرع.

حين رآني صاحب الذراع، تهلَّل وجهه، وقد استبد بي الخوف، لكني أيضاً فرح، فقال:

- أين ذراعي؟!

- في الحفظ والصون.

وقد رأى الذراع ملفوفاً بالسلوفان الأحمر، عسى أن يشتريه أحد، حاول لطمي، فلم يقدر، لكنه صرخ، وقال:

- أتنزل السوق لتبيع ذراعي يا كلب؟!

- ذراعك جيد، وزبونه لم يأت بعد، انتظر.

- أعطني ذراعي.

- صدقني لم أعرف لك بيتاً، أو اسماً.

وأعطيته الذراع، فوضعه مكانه، أحس أنه خفيف، فقال بغضبٍ:

- لقد سرقت جزءاً منه.

- خسّ من البرد، والتداول يا صاحبي.

ورأى ذراعي طويلاً.. أطول من اللازم.

- هذا ذراعي، أعطه لي.

وأشار إلى الذراع الطويل.

- قد أهديتني إياه، والهدية لا ترد.

- لكنه لا يناسبك.

- ولو!

- لكني أريده الآن. وإلا.

فخلعته، ووضعتُ ذراعي القصير مكانه، وقبل أن أمضيَ، قال:

- قف لأجربه، ربما قد أصابه عطب.

حاول أن يجربه يمنة، ويسرة، أحسَّ أنه سليم وجيد، فشتمني.

- احفظ لسانك كما حفظت لك ذراعك.

فرفع ذراعه، ولطمني، وظل يلطمني، حتى انخلعتْ رقبتي، وسقطتْ من جسدي، وقد رآني رجل آخر، فاستعطفه، لكنه- أيضاً- ظل يضرب الرجل الآخر الذي حاول مساعدتي، ولو بنظرة، حتى سقطتْ رقبته أيضاً، حمل الرقبتين، ووضع كل رقبة في كيس، ودخل على زوجته في بداية الليل، وحين رأتْ الكيسين، قبلته، وظلَّتْ تلتهم رأسينا بنهمٍ، وقد أدركنا لون سترته التي يرتديها، نعم، قد أدركنا فعلاً لون سترته التي يرتديها.

تمَّتْ

***

صاحبي

تعب الأطفال من تحضير ملابسهم، إلا أنا، وصاحبي، فقد نامتْ أشياؤنا بجوارنا، انتظاراً لبهجة الصبح، وزحامه.

ارتديتُ ملابسي على عجلٍ، وصاحبي فعل مثل ما فعلته بالضبط، وفي نفس الوقت تقريباً، ونهضنا فرحين لما ينتظرنا من سعادة.. كنا ملهوفين عليها منذ مدة، ودعتُ أمي العجوز، وقد أطالتْ الوقوف أمامي هذه المرة، ولم أطلب مساعدتها، فانفرجتْ أساريرها.

المكان الآن ليس به موضع لقدم، والفرحة تنط، وتقفز مع حركاتنا السريعة، والمتعاقبة.

أمام المدرسة، وقبل أن أخطوَ الخطوة الأولى، وجدتهم يبتسمون لي، ولصاحبي، أعتقدُ أن صاحبي يحصل على نصيب الأسد من هذه البسمات، والنظرات، فأنفجر غيظاً، وألملم شتات نفسي، وأكبح هواجسي، وأضحك مكابرة، أو مجاملة، أو تشفياً

من صاحبي، الذي يأخذ كل الاهتمام، أسمع أحد الأطفال يغمز لصاحبه، وهو يصوب أصابعه عليَّ، ويبادره بالسؤال المحشور بين أسنانه البيضاء.. الطرية.

- كيف يلعب هذا الولد المباراة؟!

أنظر إلى الطفل وصاحبه وأحسُّ في نفسي بريبةٍ، وعدم ثقة، أنا لي صاحب أيضاً، ربما لأني أكره صاحبي، ربما، لا، ليس هذا بالسبب الكافي.

يصطفُّ الأطفال بكثرة على خطوط الملعب، مثل صغار السردين المملح داخل صفيحة صدئة، المدرس ينادي الأسماء، دائماً، يملّسُ على شعري المنكوش، ويهتم بي، أراقبه، ربما نادي على اسمي، وأنا في غفلة، أرى الطفل، وصاحبه يضحكان، ربما يضحكان لأنني لست بالفريق الذي سيلعب المباراة، وأنا جاهز بملابسي الأنيقة، التي اشترتها لي أمي من سوق الأربعاء على مضض، بعدما باعتْ فرخة عتيقة.. بيّاضة، وعشر بيضات، أكيد سيدخرني المدرس لمسابقة العدو، فأنا مشهود له بالكرِّ، والفرِّ، يا صاحبي ارحل الآن، وكن وحدك، فأنا أستعد للعب.

انتهت مباراة كرة القدم بفوز الفريق الآخر.

(- ماذا لو أعطاني المدرس فرصة اللعب؟!

(- طبعاً، كنت سأحرز أهدافاً بالجملة، ويحصل هو على شهادة التقدير!)

يعلن الآن عن مسابقة العدو، يجب أن أستعدَّ، حتى أحرز المركز الأول، الذي خسره زملائي، صاحبي يضيِّق عليَّ، فأفقد كل الفرص، فدائماً ما يجعلني خلفه، إذا رآني المدرس مع صاحبي، فلن يجعلني أكمل المشوار نحو المركز الأول، الذي فقده زملائي، فإما أنا، أو هو، الحقيقة أنا لا أكره صاحبي كل الوقت، فقط، يحرجني لملازمته لي طويلاً، وأحياناً أرى ما حولي بعينيه.

أحس بفرحة غريبة، وبتوجس حينما ينادي المدرس الأسماء، وأدرك أن دوري حان الآن، أنت يا أيها المدرس تعلم أن الانتظار يقتل الموهبة، والحب أيضاً، كما كنت تقول لي دائماً، ما زال الطفل وصاحبه يضحكان، ويشيران عليَّ، وعلى ملابسي الأنيقة.

***

انتهى اليوم الرياضي، فأتأبط صاحبي بحبٍّ، ونخرج سوياً من بوابة المدرسة، تلمحني عجوز، تقترب مني بلهفة، أحس أني أعرفها، تذرف دموعاً لا تنقطع، حتى أنها بللتْ هدومي، لا أدري ما هو السبب!، ربما لأني لم ألعب، تقترب مني، وتدفعني، وصاحبي برفق، فأحس بقلبي يختلج إشفاقاً عليها.

بيتنا في آخر البلدة.. حيث البراح الذي ألعب فيه وحدي، وحيث البُعد عن الناس غنيمة، أنظر إلى صاحبي، ودموعي تلاحقني، وأسأله:

- متى ستبعد عني؟

لا أمل في رد، فصاحبي كرسي متحرك، وأمي- العجوز- تساعدني للوصول سالماً إلى بيتنا.

تمَّتْ

***

بُعدٌ أخيرٌ

الثانية ظهراً، جاء من عمله، فرحا بقدومه، وثبا عليه، قبَّلهما متبرماً، ودخل غرفته يبدل ملابسه، مسك طرف جلبابه، ليلطف عن نفسه بعضاً من قيظ أغسطس، حاول أن يغمض عينيه، تموج الشقة بأصوات متداخلة، نادته زوجته للغداء، قام ببطءٍ شديدٍ، حرّك جذعه يميناً، ويساراً، وفرك عينيه، ومسح وجهه الشاحب بطرف جلبابه، مرة أخرى، نادته زوجته، وهي تمضغ بسرعة بعضاً من الطعام، سار بعض خطوات، وأطلَّ برأسه على طاولة الطعام، وأحسَّ بوجع بمعدته، لمّا شاهدها تلتهم الطعام بجنون الجوع، أو رغبتها الدفينة في إبعاده عن الطعام، خرج من الغرفة، وجلس قبالتها، ثم غيّر جلسته، خطوات صغيرة تغدو، وتجيء، بطيئة وسريعة بالتناوب حسب الموقف، دعته أن يمد يده للطعام، أشاح بوجهه عنها، أشار بأصابعه الغليظة، وقال:

- أنا عارف أنهم لم يأكلوا من طلعة النهار.

نظرتْ إليه شذراً، ولم ترد، فدعا أولاده للطعام، صوت الألعاب يحركهم، يأخذ «وليد» الكُرة، ويعانقها كعروس أخته التي تنام دائماً بجوارها، الكُرة تسخر كيف تشاء بأشياء صماء بالشقة المخنوقة بالسكون، يرمي وليد الكرة بعنف، ليصنع لحظة مباغتة للجميع، تكسرتْ بعض الأشياء، قفزت زوجته مفزوعة، مسكها زوجها من طرف جلبابها، تحاول التخلص منه، لا تقدر على الإفلات من قبضته، وتثور في وجهه، وتتشعب رغبتها في العقاب، وهي تنظر للأشياء المبعثرة والمنتشرة في صالة الشقة، دائماً تحاول أن تحافظ على مقتنياتها سليمة، تفلت من يده، وتحاول اللحاق بابنها، يهرب منها، يتأوَّه بصوتٍ عالٍ، تقف متصلبة، ينظر إليها زوجها، ويضحك، تمسك قدمها اليسرى وتُخرج منها شيئاً، يرتعش ابنها الصغير، ويبعد عنها، لهثتْ وراءه، حتى مسكته، يمسك زوجها طرف جلبابه ليلطف عن نفسه بعضاً من قيظ أغسطس، يبكي الولد، وعيناه تحاول أن تغسل غلطته، تغضب أخته الصغيرة، وتجري لاهثة بخطواتها الصغيرة، وتمسك بخناق أمها، تعاتبها بحركاتها التلقائية، وتمنعها بيديها الصغيرين أن تكفَّ عن ضربه، ضحكة هستيرية تهزُّ أرجاء الشقة، تحتضن طفلتها، وتعطي نفسها لها لترضع، تشيح بوجهها وتنظر إلى أخيها، وتربتُ عليه بدعوةٍ من أمِّها، دعاه أن يجلس بجانبه، ببطءٍ جلس الولد بجواره، وبين الحين والحين تخرج شهقة منه، مسح على رأسه، وقال:

- إياك تبكي تاني، أنت راجل.

أومأ الولد برأسه، وداعب والده، الذي يحاول أن يشاركه بعض ألعابه، التي ما زالتْ في ذاكرته، قام الولد بمحاذاته، وقال بلكنة تحمل الأخطاء:

- بابا، أنا أصبحت قدك.

- أمنيتي.

غمرته الفرحة، وضمه إلى صدره بقوة، أحسَّ أنه يبكي، فتوارى برأسه إلى الخلف، ومسح دمعتين، وثب الولد فرحاً، قال:

- بابا يبكي.

تركت البنت الصغيرة العروس التي تنام دائما بجوارها، وصاحتْ، وهي تقفز مشاركة أخيها لعبته الجديدة، ضحكات متبادلة بين الزوج والزوجة، تحاول الزوجة إسكاتهما، فتفشل باستمرار، فتنظر له بغيظ:

- كان لازم تبكي.

نظر إليها بعصبيةٍ، ثم مسك طرف جلبابه ليلطف عن نفسه بعضاً من قيظ أغسطس، تبتسم لأولادها، كأنها تحثهما على

المزيد، توعدهما بصوتٍ خشنٍ، كتمَّتْ ضحكتها، أشار إليها بأصابعه الغليظة، وقال:

- أنتِ السبب!

ثارتْ في وجهه، أخذ الولد الكرة يداعبها، ويعانقها كعروس أخته التي تنام دائماً بجوارها، وانزوى في ركن خاص من الشقة، وقامت الصغيرة من حجر أمها ببطء، حتى وصلت إلى كرسٍ عالٍ بعض الشيء، تسلقَّته بصعوبة، حتى استقرتْ عليه، وما زالت الزوجة، والزوج وجهاً لوجه أمام المائدة.

تمَّتْ

***

حكايةٌ ميتة

وقف متوتراً، ثم تصفح بعض الوجوه التي أمامه مرغماً، هاج المكان، وعلتْ الأصوات بشدة، والتمَّ الناس- على ما أظن- حول رجلٍ، امرأة عجوز، لا أحد يدري! أعان نفسه، وأغاثها، وأخرج من جوفه بعض الغضب، كما فعل الناس، وهرول معهم مرغماً.

***

لستُ أدري إن كان ما حكيته آنفاً، قد شاهدته بأمِّ رأسي، أم هي أضغاث أحلام، في هذه اللحظة، طفحتْ جدتي على عقلي، وجسدي، تحسَّسْتُ نفسي، فلسعني الألم، وتقيَّأتُ حروفه، وارتفع أنيني، وهرولتُ إلى أمي التي كانت تبكي، بعد أن لمحتْ نظرة جدتي الحادة.

بحثتُ عن أمي، وجدتي دون جدوى؛ فخبطتُ دماغي بكلوة يدي، فاهتزتْ رأسي بأفكار لا تصلح الآن لتلك اللحظة، ترحَّمتُ عليهما، وقد كنتُ ماسكاً جريدةً، وبائع الجرائد ينتظر ثمنها، فألقيتها، ومضيتُ سريعاً، أغوص في الزحام.

تطاردني عجوزٌ، أضحك منها، وأتلوَّى مع العربات، أنفاسها قريبة، هل تسير على ثلاث، أم أنها تقفز مثلي؟، لا أعلم، لكنني أدركها خلفي، وربما أمامي، مجنونة هذه العجوز، لستُ أملك شيئاً أعطيه لها، تقترب، فأغمض عيني حتى لا أرى وجهها المكرمش، الذي لا أحبه، خائف؟، نعم، خائف، يمكن لي أن أساعدها، وأمنحها بشاشتي، ما زالتْ تطاردني، ولم أفلح في الاختفاء، أو التخفي، جلستُ أهادن جسدي المنهك تحت ظل شجرةٍ وحيدة، وبجانبي رجل وامرأة، يمكن لك إذا نظرت إلى المرأة جيداً- مثلما فعلتُ- أن تقول مجازاً: هذه امرأة، ظننتُ في البداية أنهما سيتركان المكان لي، التصقتُ بالرجل؛ بعدما وجدتُ العجوز التي تطاردني تمسك رقبتي بقوة:

- ماذا تريدين؟

- احك لي حكاية.

فضحكتُ عالياً، والرجل والمرأة ينظراني بتعجُّبٍ، ولم تسعفني الذاكرة بأيِّ حكايةٍ، وأدركتُ أن الحكايات جزءٌ خاصٌّ لأشخاصٍ عاشوها فعلاً، لمستُ حياتي البسيطة، والعادية جداً، ونبشتُ فيها، وأخرجتُ حكاياتي الميتة.

تمَّتْ

***

اعترافٌ متأخِّرٌ

كان أبي مريضاً، وملازماً الفراش، الفراش مكان يعلو عن الأرض قليلاً، وخامته من طين معجون بالتبن، ظل أبي هكذا مدة، فنثرتْ جدتي فوقنا صرخة استغاثة، وجرابها خاوٍ من الأمل، لم أدخل دارنا هذا اليوم، فقد كنتُ مشغولاً باللعب، وأهيّج البط، والإوز، بحثتْ عني جدتي كثيراً، حتى لمحتني ماسكاً إوزة كبيرة في حوش الجيران، فتحسَّستها، ومشيتُ خلفها، حاملاً الإوزة كما أمرتني، تنظرني، والإوزة بالتناوب، ودخلنا الدار:

- امسك هذه الزلطة.

فمسكتها:

- اخبط الإوزة على رأسها.

فضربتها، وهرعتْ جدتي إلى السكين الصدئة، ونظفتْ ريشها الأبيض، والماء يغلي فوق الموقد، ورفعتْ إصبعها المائر في عيني، وقالتْ:

- لا تخرج بالريش الأبيض أمام الدار.

فخرجتُ، ورميته أمام الدار، استغربتْ جدة بنت الجيران، ومسكتْ ريش الإوزة، وما وزوز عندنا، ولا بقبق من ذي قبل، سارتْ إليَّ، وعروقها منفوخة؛ فهرولتُ إلى حضن جدتي، دخلتْ ورائي، ولم تستأذن، وباحة الدار خالية، ثم استقرتْ أمام الموقد، وجدتي تنفخ في النار، تعكر وجه أمي، وانزوتْ بعيداً، وقالتْ الجدة لجدتي:

- إن خطبت.. اخطب قمراً، وإن سرقت.. اسرق جملاً.

قالتْ جدتي، وهي تحتضن الجدة:

- لحقتها قبل أن تفطس.

وأومأتْ لأمي لتصدق على كلامها، وجرتني جدتي من شعري، ومسكتْ الزلط المغموسة بدم الإوزة، فهدأتْ، ودخلت لأبي، واطمأنتْ عليه، وجلستْ الجدتان يتذكران أيامهما معاً، جلستُ بعيداً، ثم نمتُ مرعوباً هذه الليلة.

***

في أحد الأعياد، جاد أبي في سخائه، وسلَّم عليَّ، وحضنني، ثم قبلني، وابتسم، وهبطتُ شارعنا مبكراً جداً، وفرحة الملابس

الجديد ظاهرة في تورد وجهي الممصوص، والشاحب، كان هشام ابن- الأبلة- فتحية، لابساً بنطلوناً قصيراً، وكانت ورقة مالية قد أطلّتْ لتشاهد المارين، فأدركتُ أنها تناديني، فتزحزحتُ حتى تلامسنا، وسحبتها خلسة، ولذتُ بالفرار، وما إن سمعتُ صوت- الأبلة- فتحية، حتى أخفيت الورقة المالية في حذاء أبي، وجلستُ بجواره، لبس أبي الحذاء، ووضع الورقة المالية في جيبه، ونظرني نظرة لا أعرف معناها حتى الآن.

بعدها بأيامٍ، اجتمعتْ البلدة علي قلبٍ، ولسان رجل واحد (حرامي)، وكنتُ قد تخيلته كلباً، أو حماراً، فارتجفتُ، وبكيتُ، وحملتني أمي؛ فرأيته مكبلاً، ورفع بصره ناحية أمي؛ فنمتُ مرعوباً، وسريعاً على غير عادتي، وهزني في نومي، فعرفتُ أنه كان يخصني بنظرته.

الذكريات شحيحة، والأيام تمرُّ بالتذكر الموجع، والأشياء المفرحة لا نستطيع لملمتها، أو تذكُّرها، حتى كَبِرنا بالشحّ، دون أن نحسَّ.

سرتُ في بطن المدينة، ونسيتُ نفسي في التجوال، ونظرتُ يمنةً ويسرةً، ووجدتني واقفاً وحدي تحت شجرة وحيدة، كما هي عادتي، هدَّني التعب، فسارعتُ بالوقوف أمام بائعي الجرائد بمحطة القطار، قبل أن أستقلَّ خطوات الصعود لركوب قطار عودتي؛ لمحتُ كتابين، وأنا في أشدِّ الحاجة إليهما، لمحتُ الثمن، وتوافد المشترون، فوضعتُ

كتاباً في حقيبتي خلسة، جلبة، وضوضاء، (حرامي)، شمَّرتُ أكمامي للمساعدة، واكتفيتُ بالفرجة، وانكمشتُ، أعطيتُ بائع الجرائد نقوداً، رأي ثمن الكتاب الذي بيدي، وأعطاني الباقي، ومضيتُ خلسة، ثم جلبة، وضوضاء مر أخرى، (حرامي)، فتذكّرتُ الإوزة، وجدتي، ووالدي والورقة المالية في أحد الأعياد، توقفتْ أنفاسي، وانكمشتُ على نفسي، ونظرتُ حولي؛ فلم أجد شيئاً، ووقفتُ، أتحسَّسُ جيبي، وقرَّرتُ العودة لبائع الجرائد، وتحمستُ لفكرت،. تراجعتُ، لكنني قررتُ ألَّا أقف ثانيةً أمام بائعي الجرائد، وربما أعود إليه؛ حينما أمسك راتبي نهاية هذا الشهر.

تمَّتْ

***

ابتسامةٌ

قام من نومه بعد صلاة العصر، بعدما دخلتْ زوجته الغرفة، وفتحتْ شباك الشرفة لنشر غسيل طفلها.. ابن السبعة شهور، ولمّا رأته -زوجته- يدعك عينيه، ويتمطى قليلاً، وهو نائم على ظهره، جلستْ على حافة السرير، وقبلته على خديه، وابتسمتْ، ونتفتْ شعرة من ذقنه الطويلة، توجَّع قليلاً، لكنه ابتسم بصعوبةٍ بالغةٍ، مُدركاً أنه العقاب على تركه شعر ذقنه، وفرد ذراعيه ليحتضنها مجاملة، لكنها قالتْ:

- أنا لم أسمع سعالك.

حَرَّك رأسه ناحيتها علامة الموافقة، واعتدل، تركته يُكمل قيامه من تلك النومة الطويلة، لمّا سمعتْ بكاء، ونداء طفلها المستميت، كانتْ رغبة الطفل قائمة على الونس، والاحتياج، على الرغم من شَبعه، فقط، يريدها بجواره، هذا إحساس لا يُغتفر لطفلٍ

لا يدرك، هذا الإحساس يُشعر الزوج بالمرارة، والمقت في آنٍ واحدٍ، هو -الزوج- يحسُّ بالاحتياج، لكنها -الزوجة- تُفضِّل طفلها، هذا الإحساس ينمو بداخل الزوج، يعكِّر صفوه، ويقلب مزاجه الرائق قليلاً، ويُغير سحنته، ويُبدِّلها، لكنه -الزوج- لمّا تنشط ذاكرته، ويعي الأشياء على حقيقتها، يدرك: أنها غلطته، ويتَمْتِم بصوتٍ مسموعٍ لنفسه: (كان مالي، ومال الجواز) ويُدرك أن رغبته في امتلاك أنثى: هي التي أدت إلى ذلك الإحساس المُرِّ، ولمّا يشرب قهوته، ويسمع دندنة الأغاني، ويتلاشى كَدَره قليلاً، يُحب هذا الطفل المُفعم بالحيوية، وبالابتسامة الرائعة، التي توشك أن تقلعه من كيانه الغامض، والمتوتر، هذا الطفل يُدرك تماماً ما يريده، وهو -العاقل- لا يُدرك ما تعنيه هذه الحياة، هذا الطفل يحافظ على حياته باستعباد أمه، لكنه- في المقابل- يعطيها أمومة تستحقها، أما هو، فإنه يُدرك أن الحياة تهرب منه، يقتلها بالتأمل، والتفكير، والوصول إلى معنى، ربما يكون المعنى خاوياً، لكنه في نهاية المطاف مُجبر على ذلك.

لمّا دخن سيجارتين، وابتلع القهوة المُرّة، داعب طفله، ونسى ما كان يفكر فيه، ولمّا انتهى من مداعبته- والطفل يطلب المزيد- وهمَّ بالرجوع إلى غرفة المكتب، وجلس على الكرسي المبطن، أدرك: أنه مسجون، ومُستعبدٌ هو الآخر من هذا الطفل، ليس

للطفل قدرة على ذلك، لكنه الإحساس- إحساس الطفل فقط- الذي يُنكر كل فكر، وكل فلسفة، تلك هي البراءة بمعناها الواسع، والجميل.

بعد فترة صمت، قام، وشدَّ باب الغرفة عليه، لكن الطفل لم يتركه لحاله، وخبط على باب الغرفة مرات عديدة، محاولاً إخراج كلمة (ب..ا.ب..ا).

فتحتِ الزوجة الباب، وغمزتْ لزوجها بعينيها، وزحف الطفل نحوه، ساعتها فقط، أحسَّ بفكرةٍ غامضةٍ تُفسر له هذا الانجذاب، وهذا الاستعباد، فكرة: أنه شاهد مراحل نموه- هو- إلا تلك الفترة، وارتاح لهذا التفسير، وتمدَّد على الأريكة، مبتسماً هذه المرّة بصفاءٍ، لاحظتْ- زوجته- تلك البسمة، وعلى الفور قالت:

- مثل بسمة ابنك.

أدرك مرادها، وانصرف شارداً، مُنشرحاً لأغنيةٍ فرحةٍ، يبثها الراديو عن طيب خاطرٍ، لتلك اللحظة.

تمَّتْ

***

اختلافٌ بسيطٌ

برفقٍ.. وضع يديه على صدري مبكراً، فمسح عني غلالة الليل، وسمعتُ الديوك تبتهل بالدعاء القديم، وانفتح قلبي يسمع ترنيمة البدايات، بعدما غرقتِ الديوك في نقرها المستمر، لتنفتح عين أخرى للنهار.

الديوك تعلن صيحات الحقيقة الأبدية كل يومٍ.

زينتُ وجهي وهندامي، فقد كان هو الآخر مزهواً بنفسه، لم أرَ ابتسامته هذه منذ فترةٍ، كثيراً ما سألته عن حياد تقاطيع وجهه، فكان يشهق، فتشهق روحي معه، وأصمت لجلال الحزن البائن في عينيه.

تأبَّطني هذه المرة، وخرجنا سوياً مزهوّين بما لدينا، وكنتُ قد قَبّلتُ زوجتي على جبينها، ولم أفلح في أكثر من هذا، كان يمكن أن أتركها، وأمضي.. لكني وجدته يوشوشها بغنجٍ، وأنفاسه قريبة

تلسعني في قلبي، وتحفزني لإثبات رجولتي، فرحتي طوت كل فعل سوءٍ أو سوء ظنٍّ، فقلبي أبيض اليوم، ولعلها تريد منه شيئاً عصياً لا تستطيع طلبه مباشرةً مني، تحرضه، ليضعني في (خانة أليك) فهو عزيز على قلبي، وأثق فيه على كل حالٍ.

أوصلني إلى عمي، هذه هي المرة الأولى، لوَّح لي لما دخلتُ، ولوَّحتُ له بشدةٍ لما بَعُد، قابلني أحمد شرف بلهفة، وأمسك معصمي بعنف.

- تأخرت كثيراً.

ما زلتُ ألوح له بشدة، وهو يبعد أكثر، أوجع أحمد معصمي من كثرة القرص، فأنزلتُ يدي غصباً، فالعميد على بعد خطوات قليلة ينتظرني، الوحيد الذي ينتظره دائماً.

- آسف، أسف لتأخري، المسافة من البيت إلى هنا كانت طويلة اليوم.

أستطيع الآن- والآن فقط- أن أتحمَّل رذائل الجنرالات والمجانين، سبَّ أبي، وأمي، ولعن يوم رؤيته لي، لن أتخلى عن صفاتي هذه اللحظة.

تخليتُ بأحمد شرف، وأخرجتُ له شريط لساني الطويل، وقرأ كل حروفه.

- كان يوشوش زوجتي، تصور.

فعانقني أحمد، وأحسستُ بسعة صدره ودفئه.

اليوم هو أول الشهر، استلمتُ مرتبي على عجلٍ، وانزلقتُ أغنّي، مدركاً رغم ذلك خشونة صوتي.

شيء غير عادي، لمّة، لا بدَّ من إزاحة هذا الحشد قليلاً لمعرفة الخبر، جسد يغطيه دم، ركعتُ أمسح وجه الجسد، والواقفون يحذرونني، الاقتراب منه مصيبة، تبينتُ ملامحه، هذا الذي أوصلني اليوم إلى عملي، وكان يوشوش زوجتي، كان أحمد يقف عند رأسي، فمسكتُ معصمه بعنفٍ.

- لقد تربصوا به يا أحمد.

ودعوته أن يساعدني في إبلاغ الشرطة، فعندي من الشك مايقتلني.

- سيدي الضابط، أعرفه جيداً، لقد تربصوا به.

لفَّ الضابط حول الجثة مراتٍ، والتفَّ زملائي أيضاً، ومن واجبي أن أساعد في مصاريف الجنازة، تبرَّعتُ بمرتبي كاملاً، وجاستْ يد الزملاء في جيوبهم، فصنع أحمد من منديله المحلاوي كيساً، لمحتُ العميد يدسُّ في الكيس بعض النقود، وقد أفسح زملائي له مكاناً ليعاين الجثة أيضاً، لم أعرف أن له قلباً رقيقاً

أيضاً، هذه أيضاً زوجتي، ربما أدركتْ بحدسها ما أصابه، أو أنها قد جاءتْ لتطمئن على طلبها الذي طلبته عندما وشوشته به أمامي، إنها تبكي، ابكِ يا زوجتي، إنه عزيز عليَّ أيضاً، لقد كان سعيداً، وأيقظني من النوم هذه المرة بأن همس في أذني بتحنانٍ، وتبسَّم، فتش الضابط عن أشياء، حتى عثر على أوراق كثيرة، مسك البطاقة الشخصية، وقرأ بصعوبة بعدما مسحها من بقع الدم.

- من له صلة بممدوح عبد الستار؟!

الوحيد الذي رفعتُ يدي، وكنتُ متعباً جداً، والعيون تخلع عني ملابسي، وقد التف حولي الزملاء، والعميد، قال الضابط:

- من أنت؟

فمسكتُ حافظتي منعاً للإحراج، وصوبتها أمام عينيه، ولم أقَو على إخراج بطاقتي الشخصية، فأخرج الضابط صورة من بطاقتي الشخصية، وكان مكتوباً فيها: ممدوح عبد الستار، موظف بوزارة الدفاع، فاعتمد العميد صورة بطاقتي الشخصية، وكان أحمد شرف يعطي زوجتي كيس النقود.

تمَّتْ

***

ظل لرجل

(بيتك هو الملجأ الأخير يا خالة) وكانت الخالة تسعى إليه، وتضمه إلى باحة الدار بجوار الشجرة المنزرعة في وسط الدار، كثيراً ما تغاضى عن أشياء كثيرة تزعجه، وتؤرقه، اليوم وقد رضي بالمقام تحت جذع الشجرة عند الخالة التي تنزوي بعيداً.. في ركنٍ قصيّ، ما أجمل باحة دار الخالة! ما أجمل الخالة، حينما هوتْ بحنانها فوق رأسه، فامتلك كل مساحات الود التي تغيب عنه، حينما تغيب قدمه داخل شقوق قريته.

- تأكل يا بسطويسي؟!

ووضعتْ بجواره بعضاً من الثريد، وطيبتْ خاطره، حتى أتمَّ أكله، فأمسكتْ يده بكل الثريد، وألقمته فمه ا لواسع، حتى انتفختْ بطنه، وراح يبسط جسده تحت جذع الشجرة، وانتهى إلى النوم، حتى وقت الغروب.

***

كيف جرى، هو الحافي القدمين كل هذه المسافة من بداية القرية حتى دار الخالة، التي تبعد مسافة تزيد عن خمسة من الكيلو مترات؟ ولمَ لا، وهو السباق دوما إلى الحانات، والمآتم والأفراح، يقولون عنه: (إنه أعرج) وأجزم من قال لي: (إنه برجلٍ واحدةٍ) كانوا يريدونه حياً، أو ميتاً، فأدرك على الفور وقع الحوافر والسلاسل الحديدة، فجرى، وقفز، حتى ارتفع عن الأرض قليلاً.. قليلاً، وأجزم لي من شاهده طائراً في ذلك اليوم، قلت له:

- وعلامة ذلك؟!

وهو ثقة، قال:

- كنتُ أبحث عن شيءٍ مهمٍّ، فأخبرني وهو طائر أن بطتي قد سرقتها أم فلان، وهي في الطريق إلى البيت الآن، نعم، ذكر اسمها لي، لكني أخفيه نظراً لقرابتها لي.

***

هي الخالة تعرف ما به، لكنها الآن وجلة، تخفي جزعها مع ضوء الشفق الذي تبدد الآن. حين ينتهي آخر ضوء للشفق، تعلن جزعها، هي التي اعتادت وحدتها، هي الآن مع رجل، ماذا يكون بين رجلٍ وامرأةٍ، ومساحة خالية، وظلام يستر الأجساد؟ لا شيء إذن، أفاقت الخالة من شرودها، وكانت على وشك أن تتحسس

أعضاءه، وهو قد أحسَّ بأنفاسها قريبة، فاعتدل قائماً، فزعاً، فمسحتْ على رأسه، فاطمأن إليها، ودعاها أن تحكي له حكاية، ففرشتْ له حجرها، وأودع رأسه أمانة في حجرها، وهي تبعث أناملها بين ثنايا شعره، وأحضرتْ جلباباً، قديماً، وقطعتْ منه قطعة عملته منديلاً.

قالت:

- كان فيه رجل ملء هدومه، مثلك الخالق الناطق، ويخلق من الشبه أربعين.

اكتمل نموه في الشهر السابع، وهو في بطن أمه، فخبط على جدار بطنها من الداخل بقوة، حتى أوجعها، قالت أمه:

- ماذا تريد يا بسطويسي؟!

قال، وهو في بطن أمه:

- ضقتُ ذرعاً بجدران بطنك، أود الخروج أولاً.

- انتظر، حتى يكتمل نموك.

- ها أنا أسمع، وأرى، ماذا أنتظر إذن؟

- أكمل ناموسك، حتى لا يعيِّرنا الناس بك.

فلم يرد، وخبط على جدار بطنها من الداخل بقوة، حتى أوجعها، فلم تجد أمي مفراً إلا الانصياع لخروجي، وقد وسعتْ لي طريق الخروج، وهي تبكي، وتشدُّ شعرها، حتى رآها أبي نصف صلعاء، امرأة نصف صلعاء، ما أجملها لرجل مثل أبي! أخرجتُ رأسي، وتلفتُ يمنة، ويسرة، مسك أبي عصا غليظة، وقال:

- إذا خرج بسطويسي الآن سأدقُّ عنقه أمامكم جميعاً، يجب أن يسمع كلامي.

فرجعتُ إلى بطنها ثانية فزعاً مما رأيتُ، ورأيتُ أمي تزرع شعرها الذي سقط، وأصبحتْ جميلة كما كانت.

***

اكتملتْ صورة أمي في عيني بعد الأربعين يوماً، فمسكتُ ثديها، وقد جفَّ مما فيه، فقالت أمي، وقد قبلتني بين عيني.

- اجعلني بجانبك.

فقلت:

- لا حاجة لي بك.

فمضتْ تهرول حتى الجبانة، وألقتْ بنفسها داخلها، وقد قفلها أبي، وقبل أن يقفل عليها باب الجبانة، قالت لأبي:

- قد تركته وحيداً مع الجاموسة الوحيدة في الدار، وهو في اللفة ما زال.

استعضتُ عن ثدي أمي بثدي الجاموسة، قال أبي بعد مدة قصيرة.

- ألك حاجة في الجاموسة يا بسطويسي؟!

وقبل أن يسمع ردي، سحبها إلى السوق، وبدَّلها بأوراق تزين حافظته، قلت وهو ساحبها إلى السوق.

- ما زلت تعترض طريقي، اذهب بها إلى الجحيم.

ولم يرجع أبي منذ خروجه إلى السوق، ولم يسأل عني، لو كنتُ أستطيع أن أمنع خروجه كما منع خروجي أول الأمر، قال قائل: (قد جذبته الأوراق، وبدأ يقلدها، وساح في البلاد) وقائل قد قال: (لم يعد من السوق حتى الآن) وآخر قال: (قد مات وهو في حضن غازية، ودفن مع الغجر).

ها أنا وحدي، ولي بيت يحميني من السكك، يجب أن أعتمدَ على نفسي، قال الشيخ شلتوت:

- اربيه، يتيم!

وسكن في بيتي، الذي باعه لحامد أفندي -الساكن الجديد الذي استقر ببلدتنا- بعدما نسي الناس أمري، ولمَّ الشيخ شلتوت

أشياءه، وعاد إلى بيته القديم، وحين حاولتُ الدخول معه- فأنا من جملة أشيائه-ربط كلباً قد جاع منذ ليلتين بمدخل الدار، مسكني الكلب، وشبع من لحمي، وكلما يراني الكلب، يود أن يقضم من لحمي الشهي، فهربتُ من كل الكلاب الموجودة في البلد، وكان الشيخ شلتوت يدعوني للدخول، والكلب جائع.

عاتب حامد أفندي ناظر المدرسة الوحيدة في البلد الشيخ:

- أتبيع داراً ليست لك؟!

فما لبث الشيخ أن قال:

- بعتها لأصرف عليه.

قربني حامد أفندي إليه، ودعاني للدخول، لكني لم أدخل داري، فقد تغيرتْ معالمها، واكتفيت بالجلوس عند عتبة الدار، وكانت ابنته سارة تلعب معي، دخلتْ سارة الدار، وخرجتْ حاملة كتاباً، ووضعته أمامي، وقالت لي:

- اقرأ.

وقد سمع حامد أفندي بما دار، وقرَّر أن يأخذني إلى المدرسة، وشاهدتُ صوراً كثيرة، وقالت لي سارة:

- ارسم.

فرسمتها على الأرض واضحة.. جلية، وعلمتها الرسم حينما قالت: (علمني) فرسمتني مشوهاً، لا يهم.

أخذني حامد أفندي إلى المدرسة، وكانت بجواري سارة، وكان مغموماً، فقلت له:

- لا تحزن.. سآتيك بطبق ملوخية من أي مكان.

فتعجب حامد أفندي، ووقف مذهولاً، وقالت لي سارة:

- إن أبي قد تعارك مع أمي لأجل عمل الملوخية.

فمسكني، وألقى بي في الشارع، قائلاً:

- لا علم لك عندي.

أقف يومياً أمام داري (امش من هنا) يقول حامد أفندي، هي داري، بها أمني، مسك بعصا غليظة، وظل يضرب سارة، وأنا فقط أنظرها، وحين أحسَّ بدموعها، أتوجع، وأظل أدمع حتى تختفي، قالوا له:

- اربط كلباً أمام الباب.

وجوّع الكلب أياماً كثيرة، وأنا لا أقف أمام الباب، مادام الكلب واقفاً، وحين رأيتُ سارة واقفة مع حامد أفندي على عتبة الدار، لوحتُ لها، فأطلق أبوها الكلب، وهرولتُ، وظلَّ الكلب ورائي، حتى مات من شدَّة الجوع والعطش، فعدتُ أرسم سارة على الأبواب، وفي الطرقات، حتى شاع خبرها، وكان قد رآها ابن الشيخ شلتوت.

أمام دار حامد أفندي، وقفتُ، وإذا بالشيخ وابنه يدخلان، وحيدر وابنه منصور، وآخرون، رأتني سارة، فتبسمتْ، وسحبتني للداخل، وقد رحب حامد أفندي بالجميع، وحين رأوني، وقفوا، فقلت قبل أن ينطق أحدهم.

- أريد سارة.

وقالوا مثل مقالتي، فانحى الشيخ بحامد أفندي جانباً، ثم رجع حامد أفندي، وقال:

- نعمل سباق في الجري، والعصا السابقة.. سابقة.

وربت على كتفي، وابتسم كل الحاضرين.

زرعوا في طريقي شظايا زجاج، وعظام مكسورة، وروث البهائم، وغسيل البرك، في منتصف الطريق بعدما نزفتُ دمي، أوقفتُ المتسابقين، وقلت:

- من فيكم أحقُّ مني بها.

قالوا جميعاً:

- أنا.

فوضعتُ بيد كل واحد منهم صورتها عارية، مغزولة على قماش، فلم يبرحوا مكانهم، مبهورين بالصورة، فقطعتُ شوطي إلى النهاية، وكان حامد أفندي والشيخ في انتظار أي منهم إلا أنا، قالا معاً لي:

- يجب أن تؤكد فوزك مرة أخرى.

وتركوني أنزف وحدي على السكك.

بعدها، قالوا:

- هيا.. اليوم موعدك.

بجوار النهر ألتم خلق الله.

- اخلع ملابسك.

- لا أعرف العوم.

- سيغطس طالبي سارة، والأطول نفساً هو الفائز.

قلتُ بأعلى صوت، وقد سمعتني:

- لأجلها أربط حجرا فوق ساقي.

لكنهم أتوا بكل الحجارة الموجودة في البلد، وربطوا قدمي اليسرى، يجب أن تستمر تحت الماء أكبر فترةٍ ممكنة، بعد ثلاثة أيام، أردتُ الخروج، الحجارة ثقيلة، انتظروني لمدة ساعة في اليوم الأول، ثم قالوا: (مات) خلعتُ ساقي اليسرى بحجارته المربوطة فيه، وعدتُ إليهم فتعجبوا، وقالوا: (شيطان) فانطلقتْ البلدة كلها ورائي، وكانوا على وشك اللحاق بي لولا أن نبت لي فجأة جناحان. فطرتُ، حتى وصلتُ إلى نقطة لا يصل إليها أحد، فاسترحتُ قليلاً، ثم رسمتُ سار ة على تراب الأرض بحجمها، كأنها هي، ونمتُ فوق الرسم، والتصقتُ به، فسمعتُ (خفّ يا بسطويسي من طين الأرض) وقد سمعتُ توجعاً بنشوة.

***

سحبتِ الخالة منديلها، وظلَّتْ تبصق، وتجفف دمعها، وكانت هي التي تنام فوق حجره، وهو يداعب شعرها بأنامله، وحين قامتْ تبحث عنه، تذكَّرتْ أنه اختفى منذ فترةٍ بعيدة، وكانت هي تنشد حكايته للمرة الألف، والمرة الوحيدة التي رأته قبل الاختفاء البعيد، أجزمتْ أنها رأتْ احدوداب ظهره، وقدمه المقطوعة.

طلع النهار، وحين رأت الخالة سارة، وهي حامل على آخرها، قالت:

- خل بالك من بسطويسي الصغير.

وكان بعض العيال يجرون وراء سارة، لكن سارة ظلّتْ لا ترد، حتى اختفتْ هي الأخرى، وكانت الخالة تشغل نفسها حتى الشفق، ثم تبحث عنه، وتنام تحت جذع الشجرة في باحة الدار، حتى تنشد حكايته مرة أخرى.

تمَّتْ

***

نافذةٌ ضيقةٌ

بوابة زجاجية ضخمة، أقف قبالتها برهة، أتلفَّت، ربما يباغتني حارسان قويان، ليس ثمة أحد، لا بدَّ من الدخول، لا أحد على الإطلاق.

- اجر

بحركةٍ دائريةٍ، أتلفتُ بذهول، أنتظر لحظات، أستعد، ثم أمرق إلى البوابة الزجاجية الضخمة، ألتصق بها، شعور قوي مخيف ينتابني.

- أنتبه.

أهزُّ رأسي بقوةٍ، أخبطها بيدي مرات، أنزوي بعيداً عن البوابة الزجاجية، ربما يباغتني حارسان قويان، لا أستطيع مقاومة فضولي، ليس ثمة أحد.

- ادخل، لا يشغلنك ما هو آتٍ.

أقف برهة، أحاول أن أنقل خطوتي، لا أستطيع، ربما يباغتني حارسان قويان.

- الموت واحدٌ.

أمسك البوابة الزجاجية بلطفٍ، ترتعش يدي، وأشعر بوجع لا تقوى عليه، تدلتْ بعدها بجواري، أحاول أن أمسك البوابة، أتردد، أتراجع، أستجمع قوتي، أتردد، أتراجع، أتشجع، وأحاول أن أفتح البوابة الزجاجية بلطف، حتى لا تصدر صوتاً، ربما يكون الحارسان نائمين، استطعتُ أن أفتح فتحة صغيرة، تكفي أن أحشر رأسي، تلفح وجهي نسمة باردة، كانت حبيسة زمن الصقيع، فغسلتْ قيظ الزمن الساكن في عيني الغائرتين، ومسحتْ عن وجهي وجسدي النحيل انكسارات، ظلتْ تلازمني منذ ولادتي.

- ماذا لو دخلت، وتحسست الأشياء؟

- الفرصة أمامك.

- ربما يباغتني حارسان قويان.

- لديك القدرة على كسب الجولة.

- ربما يباغتني حارسان قويان.

أمدُّ بوزي من الفتحة الصغيرة، أنفي مستسلم للرائحة الهاربة إليَّ من الداخل، قشعريرة جعلتني أفتح البوابة الزجاجية على مصراعيها، أنتظر لحظات، أرتكن على البوابة الزجاجية، أغمض عيني، تصطكُّ أسناني من برودةٍ فجائيةٍ، أتعجب للآن، لم يباغتني حارسان قويان، خطوة، وأكون في الداخل، حاولتُ أن أنقل خطوتي، دوار في رأسي، وصور مبعثرة في عيني، أحاول ثانية، لا أستطيع، أرتكن، وألصق وجهي بزجاج البوابة الزجاجية الضخمة، انتقلتْ دمعتان على الزجاج، لا بدَّ من الرجوع، أقاوم يأسي،

- ارجع من حيث أتيت؟

- تائه لا أعرف طريق العودة، كل ما أعرف أني أتيت.

جلستُ مرغماً - ما دمت لا أستطيع أن أخطوَ تلك الخطوة- لأزيح عن جسدي النحيل متاعب الرحلة، التي لم أعرف بدايتها، تحسستُ ساقي بحسرة، الطنين جعل من رأسي قطعة من الحديد الصدئ، لا يقوى جسدي على حمله، القيظ ينفرني حتى من نفسي، أخلع جلبابي المثقوب، تنكشف عورتي، فأعدل عن خلع الجلباب، يغلبني النعاس، أتمدد، صلدة هي الأرض، أكنس حبيبات الحصى الكبيرة، أضع يدي وسادة، أحاول أن أنام، أقوم مفزوعاً، ربما يباغتني حارسان قويان.

- ألا يوجد من يساعدني، أو يحملني للدخول.

أتأوَّه.. أتنهد بحرقة.. أمسك البوابة الزجاجية، وأحاول أن أنهض، باءت محاولاتي بالفشل، لا بدَّ من الدخول، أنفخ دخاناً مسموماً، ونشاز في القلب يغمرني، أغمض عيني، وأكور جسدي النحيل، وأحدفه، صدري يعلو، يهبط، أنتظر لحظات، أفتح عيني بلهفة، أتحسَّس ساقي، أستطيع التجوال، ليس ثمة أحد، أقفز في الهواء كبرغوثٍ، أصلح هندامي، أمشي بحذرٍ، أرى مرآة جانبية، وعملاقاً يبتسم لي، أبادله البسمة بفتور، يدعوني أن أضحك، أضحك ضحكة بلهاء، ثم يعلو صوت ضحكاتي تلقائياً، وأبصق في المرآة، أتأمل، الألوان تتداخل تصنع لوحة نادرة، أبحث عن اللون الفضي هناك، إنه النهر، أحس بعطش، أرتوي بكفي، يداعبني النعاس، فألقى الجسد النحيل المتعب على الأعشاب الطرية، أسمع صوت البلابل، العصافير والأعشاب الطرية جعلتني أنام نوماً عميقاً، أفيق على نقر بلبلٍ جميلٍ في جبهتي العريضة، أقوم أنفض جلبابي، أحسن بامتلاك هذا المكان، أجلس أمام النهر، أداعبه، وأحدفه بالحصى، تداعبني فكرة الاستحمام، أحسستُ بارتياحٍ، وأنا أحضن النهر، وأغوص فيه، أبحث عن جلبابي، أرتعد خوفاً، ربما رآني الحارسان، أستطيع الهروب دونما خوف على شيء، أنتظر، والخوف مصلوب بدقات الزمن الرتيبة، أنسى خوفي، وأغني برجفة، تشاركني البلابل

والعصافير، للآن لم يأت الحارسان، أقفز كعابد يرقص حول النار، أدور، وأنسى نفسي في الدوران، أشرب فرحي، أترنح، وأنا ألف، كدتُ أن أقع، تمسك يدي، أتحسس اليد برجفة، أعتقد أنها للحارسين.

- هذه نهايتك.

- المواجهة.

وأنا ألف، أراها، لحظات دونما حركة، فاتح الفم، تبتسم وتشدني إليها بلطف، أضمها بقوة إلى صدري العريان، تضمني بنشوة، دائرة حولنا من الحسناوات في لمح البصر، أخبط رأسي حتى أصدق، أنسى، وأرقص معهن، أعبث بصدرها وشعرها المسترسل، أحس بجوع، أنفضتْ الدائرة بغمزة من عينيها، أتمدد فوق الأعشاب الطرية، بجواري تداعبني، أقوم، وأحاول أن أساعدهن في عمل شيء، تمنعني بلطف، أخطف قطعة لحم خلسة، وأضعها بفمها الصغير، تضحك وتعطيني إناء مليئاً، أشربه، وأقوم تجذبني إلى حجرها، وتضع قبلة على خدي، أدعوها للسير قليلاً، تتأبَّطني، أتأبطها، وأرجلنا تغوص في الأعشاب الطرية، وعيني تبحث في جسدها الفائر، قالت:

- ماذا تحب؟

- أن أنطلق في الفضاء الرحب.

أومأتْ، وقفت برهة أمام الإسطبل، أتأمل المكان، أفيق على قبلة، دلفتْ داخل الإسطبل، ركبتْ فرستها، ثم قالت، وهي تشير بأناملها الرقيقة:

- هذا «طائر» حصانك.

مشينا بإيقاعٍ منتظمٍ في البداية، ثم أسرعتُ خطواتي، رغبة ملحة تدفعني للوصول إلى بداية البراح الممتد، تلاحقني بفرستها، صوتها يتهدج، والأنفاس تتلاحق مع قفزات فرستها، حبيبات العرق تصنع خطاً من بداية رحلتنا، تقف تعباً، وتستظل تحت شجرة المانجو العالية، أنظر خلفي، نزلتْ، وألقتْ بجسدها البض، واحتضنتِ الأعشاب الطرية، وقفتُ، نزلتُ، وألقيتُ بجسدي النحيل تحت ظل شجرة الجميز العتيقة، أنين متقطع يعلو شيئاً فشيئاً مع أنفاسي اللاهثة المتعاقبة، ليس ثمة أحد، يقشعر جسدي، فقاعة كبيرة من هواء مترب أدور فيها، أحاول ركوب الحصان، يستوقفني الأنين، يعلو أكثر، يعذبني، أسمعه بوضوح، أقوم مفزوعاً على صوت أمي الكسيحة، ألملم جلبابي، أخلعه، أناولها كوب الماء، أفتح نافذة حجرتنا الضيقة.

تمَّتْ

***

خروجٌ

نداء جارف جرفني للخروج، فلبستُ حذائي على عجل، ولبيتُ النداء فرحاً.

لم يكن بوسعي أن أرمي فرحة خروجي، وأظل محبوساً بين الجسد النحيل، والجدران المرسومة لي، تمهلتُ في سيري، واستدرتُ كثيراً، ربما ألمح هائماً مثلي، فرحتُ كثيراً، فقد امتصَّ الليل الحركة، والضوضاء، والسعي المبجل، الممزوج برائحة العرق اليومي.

انتابني شعور بالتفسخ، فرفعتُ بصري للسماء، فرأيتُ النجوم تشاركني في هذا الوقت، وتسير معي حتى لا أقع في حفرة، أو يتسخ حذائي الجديد، والشوارع لا تعرفني، ومزدانة بذبالات ضوء شحيحة، هذه البيوت تعرفني في وقت آخر، أنفاسي جلية، تشجيني، وتجعلني أجزم أني المتوج على عرش ليل بلدتي.

عقدتُ العزم في أن أتسامحَ، وأصادقَ من يقابلني من العباد، لن أسير وحدي، ولن أعاقبه إذا امتهنني.

أبصرتُ نفسي جيداً، ورغباتي تحفّ من حولي، وتطن في أذني (لكِ الله يا بلدتي، تنامين حين أستيقظ، وهذه الشوارع الآن لا تعرفني، ومكتومة بمرض الخرس الليلي).

تذكرتُ أن هناك حانة يلتمُّ فيها المبعثرين ليلاً، فهرولتُ في سيري، ودرتُ حول البلدة، حتى كلّتْ قدماي، لا أثر للحانة، أو لأي حياة، لا يمكن أن أسكت على هذا الوضع، ربما تكون الحياة داخل هذه البيوت المقفلة على أصحابها، تذكرتُ حكايات كثيرة قديمة داخل هذه البيوت، فاشتعل في قلبي حنين جارف إلى طارق، فانبسطتْ أساريري، وكانت قدمي تعرف الطريق وحدها، فقد كنتُ مشغولاً بالفكرة، حتى وجدتُ نفسي أمام البيت، فنقرتُ الباب نقراً خفيفاً، توجستُ، فربما..

- (ما الذي أتي بك بعد الذي كان منك؟!

- فلننسَ، وليكن حساباً عسيراً، حينما يتكرر الخطأ.

- لقد سودت الورقة البيضاء، وانتظرتُ اعتذارك كثيراً.

- الضعف يكسوني، والعتاب مرٌّ.

- لو طالبتني بنقودك، لكان الأمر أهون عليَّ، لكن أن ترسل لي أمك لتحصِّل لك الدين قبل موعده، فهذا لا يمكن غفرانه).

تذكرتُ هذه الحادثة القديمة، وأدركتُ أنني قد أرسلتُ إليه في آخر مرة مبلغاً من المال، وورقة مكتوب فيها: (لا ترسل لي أمك مرة أخري).

في هذه اللحظة، سمعتُ همهمةً تنم عن قيام، فأخذتُ ذيلي في أسناني، ومضيتُ أقضم أصابعي ندما، وتنحيتُ عن هرولتي، وسرتُ ببطء، ثم قلت لنفسي:

- أدور حول بلدتي.

ألمح تغيراً في المحلات القليلة، وأسمائها، والشوارع تضيق أحياناً، وتتسع أحياناً، تخطيتُ الكثير من الشوارع، والكلاب تنبح حين تراني، فأفزع، لكنني أتمالك حتى لا تهبشني، وكلما يراني كلب، ينبح، ويشمر عن أرجله، ويبرز أنيابه، النباح يقلق البلدة، ويخمش الصمت، أسمع استجابات كثيرة لنداء الكلب الذي رآني، فأنزوي في ركن مظلم، وأفزع حين أرى الكلاب تتجمع مثني وثلاث، وهي لاهثة.

تحاصرني الكلاب، أبحث عن موضع لقدمي، أخشى الأنياب، وأتحسس جيبي، لم أجد طعاماً، فخذفتُ لها نقوداً معدنية، سكتتْ

حين سمعتْ رنّة الفضة، أعرف أن الكلاب طيبة، لقد تعودتُ أن أراها لا تنبح في النهار، فأدرك أن هناك خطأً في نباحها ليلاً، ثقتي تهتز، وقوتي الآن مرهونة بقدمي، ألمح كلباً يمشي ورائي، أقف، فيقف أيضاً، حاولتُ هشَّه، فلم يعرني أي اهتمام، فجريتُ بكل قوتي، والكلاب تسيطر على مشاعري.

بجوار النهر، لمحتُ رجلاً، ففرحتُ، أسير ناحيته، أحسُّ أنه ينتظرن،. يا له من رجل كريم! حين اقتربتُ، أخرج يديه من البالطو الأصفر الصوف، والباهت، ورفع بندقيته الخشبية، أتحسَّس جيبي، فأعرف أنِّي أملك ما بها، كانت عيناه- لا تمسهما النار- ترمي اتهاماً، نظرته تحرقني، سألقي عليه السلام فقط، وأمضي، حين أصبحنا وجهاً لوجه، لم أعره أي اهتمام، وسرتُ في طريقي، شغلني هذا الرجل عن أمر الكلاب، أعرف أنه يتجشم مغبة الوقوف والانتظار، من أتى به هنا؟!. ربما يكون عائداً من السفر، وربما يكون من البندر المجاور. (ياه! لقد نسيت نقطة الشرطة).

ها هي نقطة البوليس، وهاهو الخفير يحرسنا، أحسُّ أنه يتبعني، فقد كانت نظرته إلى ريبة، هرولتُ في سيري، لمحتُ خفيراً آخر، ربما أضحتْ البلدة كلها خفراء، لستُ أدري! لمحتُ خفيراً أمامي، سألقي عليه السلام لينشغل بالرد، وأمضي سريعاً، عليَّ أن ألبس

رداء الضعف الآن، حين قابلته-لا يفصلني عنه إلا الأنفاس- سرتُ، ولم ألق سلامي، لكنني أحس أنه يتبعني، هو وآخرين، فأتحسَّس جيبي، وأقبض على ما بها بقوة، وتوجس.

على مشارف بيتي، نظرتُ خلفي، وقفلتُ الباب بسرعة، ومنيتُ نفسي بضجيج النهار.

تمَّتْ

***

زُنفل «الحاوي»

جلس على أرضية الموكيت، تاركا كل الكراسي خالية منه، أنطق نفسه بنفسه، وقبل أن يسأل: كان قد أعلن نفسه بوضوح.

(- أنا زنفل الحاوي، عريف مجند سابق رقم وصلت /١ / ٤٧٠٦٩٩، المجند بتاريخ ٢٠ميناء الأدبية قادما من اليمن يوم ١٥يوليو ٦٤ونحن على ظهر الباخرة، سمعنا الميكروفون: (الرئيس موجود بالميناء، وأول واحد من العائدين يستطيع بمهارته أن يقابل سيادته، له جائزة) قام زملائي بإحضار الحبل الذي سوف يربط الباخرة، بعدما وعدتهم بتقسيم الجائزة علينا جميعا بالتساوي، لف زملائي الحبل حول وسطي، وحملني تسعة منهم بصعوبة، وأسقطوني على رصيف الميناء، وعندما خلصت نفسي، توجهت إليه فارداً ذراعي، أشار بيديه، وقال:

- شد الحبل، وثبت المركب.

ففعلت، وكان يعد النازلين بنفسه، ويجعل كل ثمانية يكوِّنون حلقة، حتى لم يعد بشر على الباخرة، ثم دعاهم للرقص، لم يرقصوا حتى وجدوه أول الراقصين، وكان يدخل كل حلقة.. يزينها برقصة جميلة حتى أعياهم رقصه، ثم جاءني، رقص معي وحدي، ولم أتعب، وتعب هو، ساعتها فقط، سألني عن اسمي، فأجبت بفخر، وعلى الملأ:

- زنفل الحاوي.

قال:

- حط ايدك في جيبي، وخذ الطبنجة، واضرب الجاسوس الموجود بيننا.

ارتعشت يدي في البداية، وقبل أن يفتح فمه ويوبخني، كنت قد سحبتها وهو في لحظة انفعاله، ولم يحس بي إلا حينما توجهت نحو الجالسين، الكل يرتعش، وخاف، يا رب لماذا كل هذا الخوف من الموت؟ وهل الخائف جاسوس؟، أنقذني الجاسوس، حينما جرى سريعاً ناحية الباخرة، وحاول أن يهبش عمره من اختفائه، ورصاصتي بين الحد الفاصل للموت، والحد الفاصل للحياة، سكنت رصاصتي قلبه الجبان، وسقط في الماء، قال سيادته:

- دفن نفسه، واغتسل بمائنا الطاهر غسله الأخير، هات الطبنجة يا زنفل.

تنفس سيادته بارتياح، بعدما وضع يديه الكريمتين خالصاً على كتفي، وقال:

- أنت مخلص يا زنفل، وأنا أعتبرك من رجال الثورة، ولك حق مثلنا بالضبط، وأرسلني إلى بنك القاهرة، ومنحت رقم حساب.

صمت سيادته لحظة، وقد تشابكت يديه الكريمتين خالص، ثم قال:

- أنا في مشكلة كبيرة.

وأفهمني أن مصر مضطرة- لإصرار إسرائيل عدم منح الشعب الفلسطيني حقه- للدخول معها في مناوشات، وقد قمنا بدراسة هذه العملية، فوجدنا أنها لا يمكن أن تتم بجيش منظم، أي بإعلان حرب على الملأ، وقررنا لها عملية انتحارية، ويمكن ربنا يستر، والعواقب تصبح سليمة، إذا كان فيه سرعة في التنفيذ، وعلى أساس ما رأيت منك على الطبيعة، قلت (آخذ رأيك في البيعة الثالثة) وطمأنني بأنه سوف يثبت ذلك في يومية مصرية، عمومية، سرية، وتحفظ مع الأسرار الحربية، وتكون مغلفة داخل أسطوانة صفيح أو صاج، خشية تلفها من الحريق أو الماء، وتحددت دية

قدرها خمسة وعشرون ألف جنيه مصري، تدفع لأسرتي عند سماعهم استشهادي، أو لي أنا زنفل الحاوي إن كتب لنا الله النجاة.

وفي أول يونيو ٦٧، كان استدعائي الثاني، وذهبت أنا وحوالي سبعة عشر فرداً من زملائي إلى المطار، صعدنا الطائرة، وجلسنا، والكل ربط الحزام، وقبل أن نصل إلى شرم الشيخ، أخذنا مطباً في الهواء، ونزلت، وحضنتني الكتيبة، ثم نشبت حرب يونيو، وانسحب اللواء الرابع من شرم الشيخ، وعشت معارك رأس العش وبور فؤاد، وحريق السويس.

***

في عام ٧٢، ورد لمركز التدريب الراقي بالدراسة، من مصلحة التدريب بالعباسية كتاب رئاسة الجمهورية، وهذا نصه:

بناءً على وصايا الرئيس الراحل، يؤخذ برأي العريف/ زنفل الحاوي، في حالة ما إذا كانت مصر تنوي الدخول في معركة هجومية مع العدو.

قلت:

- يجب أن يفقد العدو توازنه.

- إزاي يا زنفل؟!

- بتغيير تكنولوجيا الحرب التكتيكية.

ثم اقترحت ضرب خط بارليف الترابي بماكينات المياه التي اشتراها الجيش من عمر أفندي، وبعد تقديم خدعة كتابنا للسيد الرئيس الأمريكي السابق، نصها الآتي:

«السيد رئيس الولايات المتحدة الأمريكية.. لندن نيكسون، نرجو التكرم بإخطار إسرائيل بعمل مهادنة بينها وبين مصر لمدة ثلاث سنوات، حيث إن مصلحة البوسطى مغلقة اليوم، وغدا، وحالها لا يسر، وحتى يمكن إعادة بناء مدن القناة، حيث إن القاهرة قد اكتظت بالسكان.

لذا نرجو التفضل بالإحاطة والمساعدة بعمل ما يرضي ضمير سيادتكم لمساندتي، ورجوع حقي، حتى يمكن بناء جيل قادر في ظل الغلاء المدمر للمال البسيط.. المتمثل في شهرية قدرها ١٠٢ جنيهات، ولو عندي دموع، أنا كنت بكيت».

***

وقف يبرم شاربه الطويل، ويهرش شعر صدغه النابت قليلا، وبدأ يسوى هندامه الفوقاني.. تاركا التحتاني كما هو- لكنه لما يتعثر، يرفع بنطاله لأعلى- وماسكا عصا المارشال، والتي بها رسوم

متداخلة.. الظاهرة منها فقط رأس الحية، ثم عدل النياشين التي على صدره، وبد أ يمسحها ويبكي، ثم رفع رأسه إلى سقف الحجرة، آخذاً نفساً عميقاً من هواء التكييف، ثم قال:

- وقد قام الرئيس الراحل أنور السادات، والرئيس الليبي معمر القذافي، والرئيس جعفر النميري، والسيد نائب الرئيس حسين الشافعي بالاتصال تليفونيا بي من مكتب السيد/قائد مركز ا لتدريب الراقي بالدراسة، وقدموا الشكر، وطلب الدعاء بأن يكلل الجهود بالنصر، وها نحن بعد النصر، وعايز الدية.

***

خرج من مبنى بجوار قصر البارون المهجور، بعدما عدل نياشينه الكثيرة، وبعد ما رفع بنطاله لأعلى، وبعدما ألقى حذاءه المهترئ بجوار الرصيف.

وقف لحظة، ينظر إلى السماء الصافية، وبعض الغربان التي تهبط قصر البارون، وتذكر عبدة الشيطان، استعاذ بالله، ومسح عصاه، وباس رأس الحية، وقبل أن يخطو، كانت عربة فارهة.. كأنها تقصده بشخصه، صدمته، وفرت ناحية المطار، وكل العربات الفارهة أخذت نصيبها من دمه.

***

يقول محمد الفحل، الذي أُسر في حرب النكسة:

- كان شريكي في الحبس والألم.. لكنه كان عازفا عن الكلام، كان أكثرنا تحملا للألم، والصعقات الكهربائية، لكنني لم أشاهد وجهه الباسم بعد تبادل الأسرى في ٧٣، وكان قد وعدني بالزيارة ربما يكون قد مات، وربما..

صمت محمد الفحل لحظة، ووارى دمعه، وقال:

- أعتقد أنه فقد عقله، لأنني شاهدت شخصا- مثله الخالق الناطق، نفس سحنته، وبسمته الهادئة-يرتدي ملابس رثة، معه عصا مثل عصا المارشال وصفارة، يقف وسط الطريق السريع، كأنما هو إشارجي المرور.

***

بسؤال كشك الشرطة القريب والمنتصب أمام قصر البارون، قالوا:

- لم نسمع اليوم ارتطام أي جسد بأي عربة، ولم نسمع أي استغاثة أو صرخة، ولا يوجد أي أثر لدم أو جثة.

***

وجدنا أكثر من خمسين بلاغا عن اختفاء زنفل الحاوي.

***

يجزم أحد الرواة: أن شواهد قبره بأماكن كثيرة.. بكل بلدٍ تقريباً، لكن لا يجزم أحد أن جسده قد دفن فعلاً.

***

يجزم من أثق فيه: أن زنفل الحاوي بلحمه، وشحمه شاهده بالشانزليه بفرنسا، وبجوار الكعبة المشرفة، وأمام قبر الرسول، ومنهم من قال: إنه يبيع الجرائد، ويمسح الصحون في بلاد الخواجات.

***

بالكشف عن اسم زنفل الحاوي بالسجلات، عرفنا بلدته، بعد مشقة وصلنا.

- فين بيت زنفل الحاوي يا حاج؟!

- اخبط أي باب، يخرج لك زنفل الحاوي.

***

يقول أحد الرواة: إنه قد أعفي من الخدمة، بعدما اتضح بالكشف الطبي عليه أنه فاقد الأهلية، وأنه ذو حيثية، وقد رقى بالمراتب العليا، وأنه ليس عريفاً، وأن اسمه: زنفل عبده الحاوي.

***

يجزم أهل بلدته: أنه لم يمت، ولن يموت، هو من أعوان الخضر -عليه السلام-، وربما يظهر جليا أمام أعيننا في الحرب القادمة، والأمر لا يسلم.

***

لا تتعجب من هذه الشخصية، ربما تجدها بين يديك في الشارع، أو الحانة، سحنة هادئة بابتسامة، وربما تجده أشعثاً أغبراً، فقدره حق قدرِه.

***

وما زال البحث جارياً عن زنفل.. الحاوي.

تمَّتْ

***

فِي النهرِ

نتنهد ثم تصمتْ، انظر إلى حذائها المدبب، أتمعن فيه، أراه بقعة سوداء، ثم أهرب إلى ساقيها، جسدها يحتك بصدري، لا أهتم، أرى في ساقيها شيئاً، تشير بأصابعها الدقيقة إلى السمان، وهو يلتقط شيئاً ما، ويستريح في النهر، تضحك، تقف قبالتي، أحاول أن أسير، تعترضني، أحاول أن أسير، تعترضني، لا مفر إلا أن أقف قبالتها، أنظر في وجهها، أدقق النظر، لا أرى شيئاً، ثم قالت:

- أنت غير امبارح.

- أنتِ اسمك إيه؟

- .....

- بتشتغلي فين؟

- .....

- معي في نفس المكان؟

- .....

- يا محاسن الصدف.

- .....

- متزوجة؟

- .....

- ساكنة فين؟

(تهزني بلطف).

رأيتها تنزل في نفس محطتي، ساعدتها في النزول، قبضتُ على يدها، استسلمتْ، وابتسمتْ، ملمسها ناعم، سارتْ بجانبي وجسدها يحتك بصدري.

(تهزني بقوة).

جلستُ على طرف الكرسي، تركتني لتغير ملابسها، اختلس النظرات في كل الأركان، جاء من سفره تواً، سلمتُ عليه بمضض، تناولا الغداء، دخل الحَّمام، يبدل ملابسه.

(تهزني كثيراً).

لا يعرفا أحداً هنا، جاءتني بكوب الشاي، شكرتها، وأنا أنظر إلى نصف صدرها العاري، أذوب في حرارة أنفاسها، أحاول تهدئتي، تلاحقني بنصف صدرها العاري، اعتدلتْ بدلالٍ، أرتشف، وأنظر إليها بإمعانٍ، تسير متموجة، وأنا أتابعها، خرج من الحمّام، دخل غرفة نومه، فرد جسده الهزيل على السرير، دعاني للجلوس بجواره، رأيتُ فيها حرجاً، كرَّر دعوته، دفعتني، حتى دخلتُ، تكورتُ على السرير بحذرٍ، فتحت التليفزيون، ملابسها شفافة، زال حرجي قليلاً، وفردتُ جسدي ببطءٍ، جلستْ بجواري على حافة السرير، أدقق النظر في نصف صدرها العاري، متعب، يغفى، ثم يفيق على صوت الموسيقى الصاخبة، أبتسم إليه، وأعود إلى نصف صدرها العاري، أحس أن نظراتي تفضحني، يدعوها أن تأتي له ببرتقالة، أرتبك بعض الشيء، ربما قد أحس بشيء ما، عيناها تطمئنني، لا بدَّ أن أترك المكان.

(تهددني بالانصراف).

مرتبكاً، حييته، فأومأ برأسه، دعوتها أن تسمح لي بالانصراف، تدعوني للبقاء، لا ينوي أن يتحرك، أكتفي بالنظر إليه برهة، وأعود أتسلق ساقيها إلى نصف صدرها العاري، تزحزحتُ خطوتين، حتى أصبحتُ خارج الشقة، ما زالتْ ماسكة يدي، سحبتها بسرعة،

ودلفتُ مهرولاً أهبط درجات السلم، وقفتُ برهة، نظرتُ ورائي، لوحتُ بيدي، وتركتها واقفة أمام باب شقتها.

(تدوس على قدمي، تضربني بحذائها المدبب، أتأوه).

جاء من سفره تواً، وجدني متكوراً على حافة السرير، حييته، دخل الحمّام ينفض عنه ثياب السفر، جاءتني بكوب الشاي الذي طلبته، وضعته بجواري، تبتسم، احتضنتها، ووضعتُ رأسي على نصف صدرها العاري، لطمتني.

(تدفعني للخلف، كدت أن أقع).

مسكتْ خدي الأيسر، قبالتي بخطوتين، الصمت ينسج خيوطه على الشقة، نهضتُ واقفاً، دفعتني بلطف، وقبلتني، ما زال ينفض عنه ثياب السفر، لوحتُ بيدي، وتركتها واقفة أمام باب الشقة.

(صرختْ، وجذبتني إلى السور الحديدي، تشابكتِ الأيدي).

وجدتها مشمرة ساعديها تغسل ملابسه، قفلتُ باب الشقة، حملتها وهي تصرخ كطفلةٍ مدلَّلةٍ، تهادتْ، حتى استسلمتْ، نقر على الباب.

(والهواء البارد يكنس الطريق، يبعثر الأوراق الجافة).

ترتدي ملابسها بسرعة، أحس ببرودة، ربما نسيتْ شيئاً منها، تطمئنني بعينيها، ارتديتُ ملابسي على عجل، فتحت الباب، جاء من سفره تواً، أومأتُ برأسي لتحيته، لوحتُ بيدي، وتركتها واقفة أمام باب الشقة، نادتني، أعطتني دبلتها، قبَّلتها، ودلفتُ مهرولاً، أهبط درجات السلم.

(أشارتْ بأصابعها الرقيقة إلى السمان وهو يلتقط شيئاً ما ويستريح في النهر، أتحسس الدبلة بإصبعي، جسدها يحتك بصدري، أرتعش، رذاذ المطر الخفيف يجعلني أنكمش، ما زال جسدها يحتك بصدري، أقبض على يدها بعنف ونحن نسير بتؤدة، أعض على نواجذي، راح المطر يسدل خيوطه في كل الأرجاء، حتى الشوارع التي بدت خالية من المارة، اقتربنا من شجرتين عاريتين تماماً، أبحث عن مكان نحتمي فيه من المطر، حبيبات المطر الصغيرة تغسل الشجرتين العاريتين، آخر ورقتين جافتين وقعتا أمامي، التقطتهما قبل أن يصلا إلى الأرض، أشرتُ بأصابعي إلى السمان وهو يلتقط شيئاً ما ويستريح في النهر، وقفتُ برهة أنظر إلى الدبلة، خلعتها في دهشة منها، وزنتها بكفي، ثم رميتها في النهر، ثارتْ في وجهي، قلتُ:

- فلتغتسل هي الأخرى.

سارتْ بجانبي مطأطأة الرأس، الشمس تقبل الأرض وتحتضنها بقوة، وقفتُ قبالتها، أدقق النظر في وجهها، لا أرى فيه شيئاً، لوحتُ بيدي وتركتها وهي تشير بأصابعها الدقيقة إلى السمان وهو يستريح في النهر.

تمَّتْ

***

بقعتان

أدخل شقتي، يدخل ورائي قبل أن أقفل باب الشقة، أغسل وجهي من السفر، أدعو زوجتي أن تعد المائدة، وأن تضع له الطعام قبلنا، جائع هو، تضع زوجتي له الطعام الذي يحبه، يتأفّف، يعطيها ظهره، تحاول ثانية إرضاء لي، لا يرضى أن يمضغ لقمة ما دامت من يدها، تكف زوجتي يائسة، وتدخل المطبخ مزمجرة.

- أف، شيء لا يطاق، ولا يحتمل.

تخرج من المطبخ وفي يدها طبق مليء باللحم، تقف واجمة، والغضب يكسوها بالارتعاشات المفاجئة، وأنا أداعبه، وأملّس على شعره الطويل الناعم، أقوم وأحاول أن أجذب طبق اللحم، ماتت يدها على الطبق، وما زالت في وجومها، أحسستُ أن هناك شيئاً ما تحاول إخفاءه، لم أفكر طويلاً في الأمر، حيث إنني جائع، هززتُ زوجتي بلطفٍ، أفاقتْ من شرودها، قبَّلتها.

- ربما يكون لك عوناً في غيابي.

تضحك زوجتي بصعوبة، وتناولني قطعة لحم كبيرة.

- آه. لو تكف عن الترحال.

- لا بدَّ من فعل شيء، حتى لو معي ما يكفينا.

كفَّتْ زوجتي عن الترحال ما بين المطبخ والمنضدة، تجلس، وتلتصق بي التصاقاً، أداعب خصلة من شعرها الناعم المسترسل على خديها المنتفخين، ترتمي على صدري آملة أن أضع في فمها قطعة لحم صغيرة وأضحك، تعاتبني بعينيها المتشوقة، أضمها بقوة، يزمجر، أعطيه قطعة لحم كبيرة، يعلو صوته، أعطيه اللحم كله، أدخل وزوجتي الغرفة وأترك له المائدة، يكسر الأطباق، لا أهتم، يضرب بأرجله الباب المقفول، لا أستطيع أن أترك الفراش الآن، أحاول أن أقوم، تجذبني زوجتي بنظرة حانية لفمها المعسول، أرتشف من زوجتي رذاذ القبل، واللون الأحمر يغريني، أنسى ما هو فيه، يعلو صوته، يعلو أكثر، ويعلو طرقه على باب غرفتي.

- افعل ما شئت الآن.

أفتح باب الغرفة، يهدأ، أنظر إليه، يسكت، ويتمسح بي، أتلفَّتُ ورائي، لا أجد مفراً أن أسير ببطء، قاصداً الحمَّام، حتى أنفض عن نفسي روث النهار، وروث الفراش، يستوقفني، أبتسم، وأرفعه إلى

صدري العريان، يعاتبني، وأرى في عينيه دمعتين، أحسُّ برغبة في البكاء، أتركه، وأمشي بسرعة إلى الحمَّام، يمشي ورائي، لا يتسع الحمام لاثنين، أدعوه أن يجلس انتظاراً لدوره، أصبُّ على رأسي كثيراً من الماء البارد لألطف بعضاً من قيظ يونيو، وأفيق من حمى الرأس الملعونة، أخرج من الحمام، أمسح رأسي بالمنشفة، وأنا أسير قاصداً الصالة، لا يأخذ دوره، ويمشي ورائي، أجلس، يجلس قبالتي، أشعل سيجارة، تناولني زوجتي كوب الشاي، وتجلس بجانبي، أضمها إليَّ، وأمنحها القبل بالتناوب مع كوب الشاي، شاردة تنظر إليه في أسى، وغيظ.

- عجيب أمركما، بحنانه الزائد لي، وقسوتك عليه، التي لم أعهدها فيك قط.

تبدلتْ ملامحها، انتفختِ العروق، وتقلصتْ عضلات الوجه الجميل الباسم، وفاجأتها الارتعاشات الخفيفة، تلعثمتْ كلماتها بعصبية زائدة، قالت:

- لا أحب أن أراك، أن أراه من اليوم.

تيقنتُ من شيء ما، تعلق نظري على ملامحها الناطقة بما تخفيه في طيات ضلوعها، جاءتْ تداعبني، وتفرك شعري، وتسند نهديها الملتهبين العاريين على وجهي، تميل بجسدها يميناً، وشمالاً، تلتهمني

الرغبة، أحك رأسي في نهديها، وأستريح على وسادته، ثم أجذبها، وأعصرها بين ذراعي، أقبلها قبلة طويلة، أنسى فيها كل شيء، تفصلني عنها بلطف، وتشير إليه، وهي تقول:

- لا أحب أن أراه من اليوم.

أومأتُ برأسي، حتى لا أدخل مع زوجتي في نقاش، ينقلب إلى خصومة، أرتشف نفساً عميقاً من السيجارة، أنفخ، أدعو زوجتي أن تفتح التليفزيون، أدعوها ثانية، ربما لم تسمع، أدعوها بصوت مرتفع، تطأطئ الرأس، ربما تكون مهمومة بشيء ما، أتوتر، وأجذبها بعنف، تصدم بالكرسي، تبكي، تتَّتْم:

- أولاد الحرام ق....

أصابتني بالدهشة والوجوم، أفيق، مطأطئة الرأس، أصرخ فيها:

- ألم يكن هو موجوداً! إن له خبرة في ذلك بالسليقة.

- لم نجن منه إلا كثيراً من قاذوراته، التي يلقيها هنا، وهناك.

أنظر إلى زوجتي، إن معها كل الحق، أنظر إليه أتراجع، قلق، حائر أنا بين زوجتي وبينه، حزمتُ أمري، وارتديتُ ملابسي ذات اللون الأسود، بحثتُ عن حبل الغسيل، ووضعته في جيبي، فتحتُ باب الشقة، ونزلتُ إلى الشارع، أرجو ألا يتعقبني، يتعقبني، أنظر إليه بتحنان.

- آه لو تعرف ما أنا صانعة بك إن أتيت.

***

عند المزلقان، في منأى عن العيون، أخرج حبل الغسيل من جيبي، أصنع منه حلقة، أداعبه، يعطيني رقبته راضياً، أربطه بقوة، وأربط الحبل بين قضيبي السكة الحديد، جلستُ قبالته كما كان يفعل، يحاول أن يفك الحلقة المحكمة حول رقبته.

- كنت أتمنى، لكن هذا مبدئي.

يتلوى، دمعتان مالحتان على وجهه، يدعوني أن أحاول ألا أنظر إليه، حتى لا أستسلم لندائه، القطار يقترب، أسمع دقاته الرتيبة، ينتفض، أرتعش، تعلو الدقات الرتيبة أكثر فأكثر، أنظر إليه، أحاول أن أفكه، يعطيني القطار ضوءاً أحمر، أشعل سيجارة، يستنجد بي، أشغل نفسي بالفراغ الممتد، ألمح في عينيه دمعة، يسيل لعابه، أقبض على أسناني، يمرق القطار، تناثر اللون الأحمر في كل الجهات، أفطن إلى بقعتين في سروالي.

أتنفس بصعوبة، أسير دون وعي، أشعر ببرودة، أحس بأنفاسه تدفئني، ثرثارات يجلسن أمام بيوتهن، يلمحنني، يسكتن فجأة، ألقي عليهن التحية، وأنا أسير بتؤدة، همهمات:

- زوجته الجميلة لا تكفُّ عما هي فيه.

- فيما بعد سيعرف كل شيء.

- الكلب هو الذي...

أتلفَّتُ ورائي بسرعة، يسكتن فجأة، أحس بشيء ما غامض لا أدركه، أنظر في وجوههن، أرى عطفاً وإشفاقاً، أتمنى أن تنبس إحداهن بكلمة، أرجع خطوتين، يرتعدن خوفاً، أدعوهن أن يمرقن إلى بيوتهن، أسير، وأترك خلفي حديث النسوة الثرثارات، أحس بأنفاسه الآن تدفئني، يتمسح بي، أبحث عنه، لا أجده، وأرى بقعتين في سروالي.

شارداً، أقرع باب والدتي، يتهلل وجهها، أتركها، وأدخل غرفتي القديمة، تجرجر ثوبها الأسود، وتدخل ورائي، ألفظ دمعتين، تجذبني إلى صدرها، تمسح الدمعتين بيدها، وأخذتْ تهدأ من روعي، وهمّي:

- لا تستحق امرأة في هذا الوجود دمعة في عين رجل.

دوامة عنيفة أدور فيها، شيء ما يكبلني، أحسُّ بالاختناق، تفتح والدتي كل النوافذ، أنزل درجات السلم قافزاً، تناديني أمي، لا أسمع إلا صوت زوجتي يناديني، أحسَّ بأنفاسه الآن أقرب ما تكون، أجري، أجري بسرعة في الشارع، النسوة ما زلن أمام

بيوتهن، أكسر باب شقتي، أتحسَّس جيبي، أنزل إلى الشارع، أتمنى أن تتبعني زوجتي، تتبعني زوجتي.

عند المزلقان، يلتف الناس حولنا، أرى النسوة الثرثارات بينهم، أشعل سيجارة، أنفخ بعصبية، أسمع دقات القطار الرتيبة من بعيد، أنظر إلى زوجتي، أنتظر القطار، والقطار لا يأتي.

تمَّتْ

***

العزاءُ

سرنا متجاورين حتى وصلنا إلى الجامع الكبير، الشحاذ يمد يديه، أعطيته شيئاً، دعا لنا، خرجنا، ما زلنا نتجاذب أطراف الحديث، عند تقاطع شارعين، ملت يساراً، تتعجل خطوتي، سكون البيت المحبب، أنظر ورائي، أبحث عنه، كان لا بدَّ أن يتركني وحدي، كان عليه فقط أن يخبرني، ليس ثمة توقف، أخطو خطوتي الأولى بعد توقف، أقفز، أحاول أن أتجنَّب بقع الطين المنتشرة بالشارع، نظراتي المثبتة بقدمي تبحثان عن بقع الطين الصغيرة ليتفاداها حذائي المهترئ، يمسكني من الخلف، تلفح جسدي المرتعش، حرارة هاربة تتوعدني من صيف ساخن مضى، بانتْ عروقي، أنفاسه تزيد من سأمي، نظرتُ ورائي، أرى عينيه المعسولتين تبتسمان، يربتُ على كتفي، يتأسف، ويجذبني إلى الطريق الآخر، أمشي وراءه، ثم قال:

- العزاء.

قلت:

- كفاني حزناً!

يبتسم، أضحك ضحكة بلهاء طويلة، تأوهتُ، تذكرتُ أن والدتي ألقتْ علىَّ مهمة العزاء، ثقلتْ خطواتي، تحاملتُ على قدمي أكثر مما يجب، دمعتان لم أستطع منعهما، أسائل نفسي، أفيق على هزة من أخي، زادتْ دهشتي، رأيتهم واقفين، رافعي الأيدي، نظرتُ في وجوههم المتجمدة قبل أن تحتضن يداي أيديهم، تصلب نظري على الأستاذ عبد العظيم، دققتُ أكثر في وجهه، وعينيه الحمراوتين الدامعتين، ولحيته المبتلة، ساعدتني يدي اليسرى في احتضان يده بين راحتي، أضغط بتحنان على يده المستسلمة والمرهقة من كثرة تداولها، استسلم جسدي للحزن المرسوم على وجوه الجالسين، ألقيتُ عليهم سلامي، سمعتُ من دعاني للجلوس هناك، تجاهلته، وبحثتُ بناظري، وجلستُ بجوار أخي، همستُ في أذنه، قال:

- له ولد وبنت، ملأ جيوبهما بالدولار المجنون.

***

- لا دايم غير وجه الله.

أغوص في عينيه قبل أن يلقي السلام، ويمضي، أفزعتني آلية الحركة والكلمات، ارتسمتْ على وجهي ابتسامة عريضة بلهاء،

يقبض أخي على أسنانه المتفرقة بعنف، يدعوني أن أكف عن الابتسام، حتى وقعتُ أخيراً في بؤرة الصمت.

السرادق قبالة الشاطئ، في طريق عمومي كثيراً ما مررنا عليه، نصغي بلهفة للصوت المكدود بالحزن، يسكت، يعلو، أحاول أن أشغل نفسي، أو أسترجع شيئاً، أفشل، أحاول، لا جدوى من المحاولة.

مرغماً، أنظر إلى صفحة الماء، هل تحمل قطراتك موتاً؟

أتمنى في تلك اللحظة العبور إلى الشاطئ الآخر، الصوت المكدود بالحزن يعلو، أغوص في نبراته، أرتجف، دمعة على خدي الأيسر، أمسحها- وأنا أستدير نصف استدارة- بظهر يدي، أرتجف أكثر، أحاول أن أقف، ما زالتْ في جسدي رعشة، يساعدني أخي، مرشوقة حولنا الأنظار، دعوته أن يكفَّ، ويجلس، ارتشفتُ بعض الماء، شخص قادم إليَّ لا أعرفه، أحاول أن أقوم، يقبض على يدي بتحنان، قال:

- شكر الله سعيك.

أفتح فمي، يرد أخي، أعطاني الرجل سيجارة، وعلبة الثقاب وشكرته، ارتشفتُ نفساً عميقاً، أسعل بصوتٍ مرتفعٍ، تبهرني ذيالة ضوء شحيح بالجانب الآخر من الشاطئ، ضحكة ملائكية وبجوارها

شاب أسمر ضحوك، يجدف ويسير بهوادة على صفحة الماء، يفرك شعرها المتموج، تمسك أنفه الطويل، يتململ منها ألماً باسماً، تضحك ضحكتها الفضية بلون الماء، يجذبها إليه، تلتصق به، يناوشها، يدعوها أن تمنحه قبلة على الحساب، ويردها متى أرادت مثلما يفعل مع البقال والجزار، تفلت من يده، ينهض واقفاً، يهتز القارب، لا يعرف العوم، تعطيه قبلةً طويلةً، ثم تدفعه بجنون، يهتز القارب غاضباً، حشد كبير على الشاطئ، ولولة، وصراخ، يتوعدونه، أصرخ:

- عبير.

هزة قوية من أخي آلمتني، يجلسني، أغسل وجهي بدمعي، أنظر حولي، لا أجد في السرادق إلا أخي.

تمَّتْ

***

زغرودةٌ

أوصدوا الباب، ولم يدخلوا، وقد ظلوا على نقرهم للباب، وقد خمش الحزن بأظافره ملابس النسوة، فبدَّلها امتثالاً لذلك المشهد.

(لبستْ عيوني صحوها بعدما هزني نقر الباب المتواصل، فقمتُ)

لن أقف طويلاً، أين مني الوجوه؟ وكانت أقفيتهم هي التي أراها، ما من خبر قبل الآن يجعلني متيقناً من دخولي، قابلني الرجل الذي بداخل العنبر مرحباً، وقد حياني بابتسامة عريضة، نظرتُ الواقفين أمام الباب، فوجدتهم قد غيروا وقفتهم، وأصبحتْ أقفيتهم هي التي أراها.

رخامات تعلوا عن الأرض قليلاً، فوق كل رخامة صنبور ماء، ومصفاة بوسطها رائحة الفينيك، وكولونيا الليمون، وروائح أخرى، يحملها النائمون على تلك الرخامات.

إكراماً لي فتح صنبور الماء، ودعك الجنب الأيمن، فالأيسر، وحمله على القيام، وثنى العمود الفقري، وضغط بكلوة يديه على البطن.. قريباً من السُرَّة، فنزت الفتحة التحتانية ببقايا، ثم غسل الحوض كله، استر عورتي، فسترها، صدري عريان، فألبسه قميصاً، ثم جلباباً، وزينه بعباءة، أقعدني، فأقعده، اثنني بمداسي، ليس لك مداس، احملني حتى ترفعني عن الأرض، ففعل، أسندني حتى أمشي.

قال لي الرجل الذي بداخل العنبر:

- أيهما تخصك.

حاولتُ التعرف على إحداهما، فمنعني، لا تمنعني أرجوك، ثم قلتُ: (حادي، بادي سيدي محمد البغدادي) لكني خلسة تعرفتُ على العينين فقط.

- هذه.

ووقعتُ على استلامها، وحين تأكد لي أنها تخصني، أعطيته ما جاد به حزني، ورفعتُ الغطاء، ومسكتُ طرف القماش الملفوفة بها، وحين دحرجتها قليلاً، انزلقتْ سريعاً من فوق الرخامة، وللصدفة أن الباب كان مفتوحاً عن آخره في تلك اللحظة، فلم تصدم، واستقرتْ -أعتقد- في الطريق، وشددتُ القماش

منفعلاً، وبسرعة، فانفك عن الجثة تماماً، يا للهول! الجثة عارية الآن، سيعايرني الناس، وركضتُ أجري مخافة أن يسبني الناس، وحين وقفتُ على الباب، نظرتُ يمنة ويسرة، وأنا الوحيد الخارج من المشرحة، فلوحتُ لهم بما في يدي، كفن، مئزر، ثوب جديد، وقلتُ:

- أين الجثة؟

فسمعتُ زغرودة.

تمَّتْ

***

الوقوفُ تحت المظلةِ

(انتهِ منه حتى تستريح) يؤرقني كثيراً هذا الهاتف (اقطع دابره) لم أصل معه إلى حل، أحاول النوم، أتململ، أسحب الغطاء على وجهي، أزيحه عن جسدي المنهوك المتكور على سرير من طراز قديم، أهز نفسي، صوت أنيني يصل إلى مسامعي، الضوء الأحمر الباهت ينفذ إلى قلبي المضطرب، زفرة حارة، وتنهيدة تكمل الإيقاع، أقوم، أضيء المصباح، أرتجل السير في الغرفة، أربط رأسي بمنديل محلاوي، لي رغبة في الرقص، أبحث عن المذياع، أفتح النافذة، أدير مؤشر المذياع، المحطات بعيدة، والصوت أنيني متقطع، أقفله، وأرقص، أهز نفسي بقوة، ضحكات متوالية هستيرية، ثم أنزف دموعاً، أرتكن على السرير لحظات، زفرة حارة، وتنهيدة تكمل الإيقاع، أطل من النافذة: صغيرتان مليحتان تقفزان، ضحكهما يطمئنني، وعجوز، وامرأة أتابعهما، قالت الصغيرة للأخرى:

«كان يا ما كان».

زفرة حارة، وتنهيدة تكمل الإيقاع، أتحسس رأسي، قال العجوز للمرأة:

«كان.....»

أشد رباط الرأس، أدقق النظر في قوالب الطوب الأحمر، أسير في الغرفة، أطفئ المصباح، أحدف جسدي على السرير، أغمض عيني، أهز نفسي، صوت أنيني يصل إلى مسامعي، الضوء الأحمر الباهت ينفذ إلى قلبي المضطرب، أدير مؤشر المذياع «كانت الأيام» أقفله، قالت المرأة، وصوتها يرتجف:

«لك حب لن يرى النور، جاء في وقت متعسر»

زفرة حارة، وتنهيدة تكمل الإيقاع، حزمتُ أمري، ولملمتُ أشياءها، ارتديتُ ملابسي على عجل، انتظرتها قبالة المصنع، كما تعودتُ كل صباح، نزلتْ من التاكسي، مشيتُ بجوارها عمداً، تلفتتْ، وابتسمتْ، وطأطأتْ رأسها المستدير ذات الشعر الأسمر الناعم المقصوص، والمتدلي على كتفها، وجبينها العريض نجلاً، بين لحظة وأخرى، أدقق النظر في وجهها المشرب بحُمرة، وأنفها الدقيق، وعينيها الواسعتين العسليتين ذات الأهداب الطويلة، تأخرتُ خطوتين، استعذبتُ مشيتها، ابتسمتْ إليَّ، ثم قالت، وهي تشير إلى دبلتها:

- يساومني.

ثم أسرعتْ خطواتها، ودلفتْ داخل المصنع، بحثتُ عن أم حمادة، انتظرتها، حتى تناولتْ وجبتها، قلت:

- أظنك تعرفين.

أومأتْ، وابتسمتْ، ناولتها المظروف المقفل، وخطاباً، وانصرفتُ، قرأتُ سوسن.

«لست محطة للهاربين، أو العاجزين، الكل يختار، وعلينا أن نحتمل»

بكتْ، وناولتْ أم حمادة الخطاب، وهي تسبني، طيّبتْ أم حمادة خاطرها، ثم قالت:

- اقرئيه في البيت على مهلك.

مزقته، وانصرفتْ إلى عملها.

في اليوم التالي، تسللتُ إلى أم حمادة لمعرفة ما تم، وما قد يكون، قابلتني بابتسامة، عاتبتني في البداية، احتوتني بنظرات مشفقة، تملس على يدي بتحنان، وتربت على كتفي بين الحين والحين، وأنا أحكي، وعدتني بمقابلة سوسن، وانصرفتُ بلهفة.

في شارع البحر، تلفَّت سوسن باستمرار، أسير بجوارها، تبتعد، تضحك أم حمادة، جلسنا تحت مظلة من الصاج مدهون بلون أصفر، تدفعني سوسن للكلام دفعاً، تغمز لي أم حمادة، أضحك، قلت:

- خائفة..

أومأتْ، سألتها أم حمادة عن مدى تعلقها بي، أشاحت بوجهها المستدير إلى الجهة الأخرى، وقالت باستحياء:

- أتمنى أن أظلَّ بجواره مدى الحياة، لكن..

سكتتْ، ونظرتُ إلى أم حمادة، ونظرتْ أم حمادة إليها بدهشة، وقفتْ سوسن بصعوبة، ترتعش، ثم قالت:

- أرجوك لا تنطقها.

ارتَّمتْ تحت قدميه، ركلها، وقال:

- أنت طالق.. طالق.. طالق..

وانصرف، بحثتْ عني، وكنتُ في الطريق الفرعي.

تمَّتْ

***

الوصولُ إلى المحطـةِ

قرأتُ (أراك غداً).. كوَّرتها، وألقيتها بجوار الطوار، وانصرفتُ.

في اليوم التالي، سرتُ بجوار الطوار، حرصاً مني على العربات المترنحة، استوقفتني وردة حمراء، واللبلاب يقبلها، تلفتُّ، ربما يلمحني أحد، أغمضتُ عيني، ثم وضعتُ الوردة في جيبي، وأنا أرتعش.

أمام المحطة، جلستُ تحت شجرة الصفصاف، أكنس المكان بناظري، ربما تأتي من الخلف، لمحتها قادمة، فقمتُ، تحسستُ جيبي، سلمتُ عليها بلهفة، قالت بصوتٍ مرتجفٍ:

- الوقت غير مناسب.

بانتْ أسناني عن آخرها.

- ستعرف غدا كل شيء.

تحسستِ الوردة الحمراء بأنفها، ووضعتها بجانبها على السور، أخرجتْ ورقة صغيرة بحذر، وألقتها بجوار الوردة الحمراء، واختفتْ بين الأصوات والألوان الكثيرة، قرأتُ، ثم انصرفتُ.

تأملتُ المحطة، اشتريت قرطاس لب عباد الشمس، دخلتُ، مسكني الكمسري، نظرتُ إليه، تركني، صعدتُ درجات السلم قافزاً، تأكدتُ أنه رصيف الإسكندرية، جلستُ تحت المظلة على كرسي رخامي، وضعتُ القرطاس بجانبي، ماسح الأحذية يروح ويجيء عدة مرات، استقر نظره عليَّ، قال: (تمسح) نظرتُ إلى حذائي، علاقتي حميمة جداً به، إصبعان من قدمي اليمنى أطلا من الحذاء، ضحك ماسح الأحذية، بادلته الضحكة بفتور، أعلن عن قدوم القطار، ارتعاشة خفيفة في ساقي، حشد كبير هناك، أعتقد أنه لوداع شخص عزيز، استراح القطار لحظات، أروح وأجيء، رأيتها، وبجوارها شاب أنيق، رأتني، فتحتِ النافذة، سلّمتْ عليَّ، وقالت:

- أشكرك.

ناولتها قرطاس اللب، وأنا مغمض العينين، ثلاث دقات نحاسية، أطلَّا برأسهما من نافذة القطار، لوحا بأيديهما معاً، شحيح نور المحطة، غابتْ، بحثتُ عن ماسح الأحذية، التقطتُ قرطاس اللب من رصيف المحطة، ونزلتُ.

تمَّتْ

***

راضية

وفيتُ الوعد، لا أحد داخل البيت، دلفتُ مهرولاً إلى دوامات الشوارع الباردة الخالية، أرغب الحديث، لا أحد على الإطلاق، أصعد، أهبط، أتلوى في الأزقة الضيقة، أتلمس الجدران الطينية، أرتكن عليها أحياناً، نور شحيح يهرب من نافذة أحد البيوت ليسقط ميتاً أمام قدمي في الشارع البارد الخالي، أقف، أسمع، ثم أنصرف، وصلتُ دون قصد إلى المحطة، جلستُ تحت المظلة، أرغب الحديث، رذاذ المطر الخفيف يسقط على وجهي، أتذوق قطرة، ثم أقفز نازلاً المحطة، وأنا أغني.

في ظهيرة اليوم، أسرعت البلد لشراء ما تحتاجه لعدة أيام، واستقر الرجال والأطفال في البيوت يلعبون، ويحبسون أنفاسهم جزعاً، ربما تدخل الأمطار قعر البيوت.

في منحنى طريق، اصطدمتُ بها، ضحكتْ ضحكتها المعهودة، كانت «جميلة»، وبجانبها ابنتها «راضية»، تعلقتْ «راضية» بعنقي، ضممتها، وأنا أقبض على كفِّ «جميلة»، ثم سألتها عن جابر، قالت:

- قاعد في البيت.

-.....

- بيلعب الطاولة.

- على فين؟

الطين يكسو حتى الجدران الطينية، في وسط الشوارع والأزقة بقع مياه راكدة من ظهيرة اليوم، نزلتْ«راضية»، تحثني على المسير، قالت «جميلة»:

- نجيب التموين من عند البقال.

وأومأتْ لي بغمزة من عينيها المكحلتين، وبسمة، أُخلِّص قدمي من الطين بصعوبة، كدتُ أن أقع، فمسكتُ ذراع «جميلة» من تحت الإبط، تحسستُ إبطها، ضحكتْ، نظرتْ «راضية» إلى أمها، ثم إليَّ، وتشابكتْ الأيدي، وهي راضية.

تمَّتْ

***

ليلٌ، ونهارٌ

(١) العودةُ.

العودة إلى وكري مصيبة كبرى، قد تكلفني حياتي الهشّة، فأنا لا أعود في أثناء السواد المطبق على ظلال الأشياء، التي لا أعرف ملامحها الحقيقية، نفسي تجيش بأشياء، أحسّها وحدي، وحروفي- التي لا تخرج مطلقاً- تتعانق مع بعضها البعض، وتعطيني جُملة ناقصة، لكنني أعرفها كاملة.

أتحرَّر من خوفي، وموتي، وأقفز لاهياً بين سطور القرية، وأرى النفس تطرد مساحات السواد، السواد الآن يتراجع، وأنا خائف من عودته، فهو يعود دوماً بعدما يموت النهار على أرصفة التسكع، ومعاكسة العواقر، والعاهرات، أعود الآن ساحباً رعشة أوصالي، وأتدثر مطمئناً على خوار الجاموس، وتغريد العصافير، حيث لا بدَّ أن ينقضيَ، وينجلي كل ما هو هَش.

(٢) النباحُ، وطريق العودةِ.

- يجب أن تخرج الآن، فقد تجاوزت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل.

- ما عليك إلا أن ترتدي أجمل الملابس، وتذهب.

اخترتُ الزيَّ الذي تحبه، واعتادتْ أن تراني به، أفتح بوابة المنزل بصعوبة، فتُخرج صوتاً قبيحاً، ربما يسمعني من بالداخل، أخطو أولى خطواتي خارج المنزل.

- يجب ألا تذهب هذه المرة، فربما.

- سأجازف.

أمشي في الشارع حتى نهايته، أنحني يساراً، حتى أصل إلى الطريق العمومي.

- ما بال الظلام هذه الليلة.

- لا بأس، تابع سيرك.

تخيفني المباني، المحلات، أعمدة الإضاءة، كل شيء محاط بسترة من السواد، قدماي تعرف الطريق، وأنا أفرد ذراعيّ خشية الاصطدام.

- ارجع.

- بعدما مشيت نصف المشوار.

خطواتي تتفادى برك الطين، لقد حمل حذائي من الطين ما يكفي لبناء كوخ صغير، وطفل في أحشاء امرأة، وقفتُ مستنداً على حائط طيني، أُخرج علبة سجائري، أشعل سيجارة، ربما تضيء لي الطريق، أسمع هسيساً، ولذة توجع، فأحبس أنفاسي، ولهفتي، أتابع السير، دخان سجائري ملأ صدري بنوع من الدفء، لم يستمر الدفء، حينما سمعتُ صوت أحد الخفراء، فتقوقعتُ داخل هواجسي المرتعشة.

- ....

- تماسك.

يتكرر نفس النداء، ويقترب كل منا للآخر، حتى صرنا وجهاً لوجه.

- السلام عليكم.

- وعليك السلام.

ومضى في طريقه، أحسستُ بالطمأنينة عندما لم يتكلم معي، ربما يعرف وجهتي، وربما ظن أنني عائد من السفر، لمّا رأى

ملابسي النظيفة ببطاريته الصغيرة، وربما كان في عجلة من أمره، أو ينتظره عزيز على عتبة بابه.

- أكمل طريقك.

- وكيف لي ذلك، وكلاب النصيري واقفة بالمرصاد!

- لا تخف من الكلاب.

تجمَّع عندي فتات من شجاعة، وتجمعت الكلاب، ونباحها يدوي في السكون، وأرجاء البلد النائم، فيخمش بكارة الصمت، ويرتد النباح إلى أركان جسدي، الذي خيّم عليه الخوف والسواد.

- اذهب من طريق آخر.

- طرق أبي زيد كلها مسالك.

أسير ببطء، وأنظر إلى عيون الكلاب، كانت تبرق، فتزيدني خوفاً، أمشي على أطراف أصابعي.

- إذا كان لك عند الكلب حاجة، قل له يا سيد.

الكلاب تنبح، وأنا أبتعد، فأحس ببعض السكينة، أفكر في أمر نباح الكلاب، يقولون: (الكلاب تنبح لمّا ترى الشياطين) وحينما أصبحتُ بعيداً، خيّم الصمت في أرجاء البلد النائم.

أُكمل سيري، أرى البيت، أقترب منه، فأرى ملامحه على ضوء سيجارتي، أرتكن لحظات، ثم أدق الباب دقاً خفيفاً. تخرج، وعيونها تبرق دون نباح يُذكر، أخلع حذائي المحمل بالطين، وأدخل، خلعتْ عني ملابسي، وملابسها، واكتملنا في شرع الجسد، والابن سرٌّ أبيه، والبنت مثل أمها، والحلو ما صار في جعبة أخي، كنا نعلو، ونهبط، وهبوطي طريق العودة، والعودة إلى وكري مصيبة كبرى، قد تكلفني حياتي الهشّة، في هذه اللحظة، دق زوجها الباب.

تمَّتْ

***

بيتُ الراحةِ

كان المحمول فوق الأعناق يشير إلى اتجاهٍ ما، يتصبب عرقاً، مبحوح الصوت، خلفه طابور طويل من اللحم، يسير على خارطة إصبعه، أجزم أن هذا المحمول أعرفه، وأنه يُشبه صور الرجل المعلّقة في كل المصالح الحكومية.

***

مسكني إسماعيل من هدومي التي ابتلتْ من عرق هرولتي، وبسط رداء محبته، وعاتبني:

- قطعت نَفَسي، الله يقطع نَفَسك يا بعيد.

- أنت غاوي جري وراء الخلق يا إسماعيل.

- شغلي.

بعد أن استراح، مسكني من قفاي، وأمرني بخلع ملابسي قطعة.. قطعة.

- هي كل ما أملك يا إسماعيل.

- لا يهم.

- حرام أن أصبح عارياً!

مزق كلامي بصمته.

- استرني، الله يسترك!

ما زال مصرّاً على خلعِ ملابسي، نظرتُ لعينيه، فأشاح بوجهه إلى الناحية الأخرى. قلتُ:

- ملابسي قديمة، ولا تناسبك يا إسماعيل.

- لا يهم.

- لن أخلعها.

- ستخلع ملابسك مع جلدك.

لحظات صمت موجعة بيننا، قطع إسماعيل ألم الصمت، وقال:

- ألا تحب الجديد؟

- لي مزاج عكر، يخلط القديم بالجديد، هكذا تعودتُ:

- نريدك شيئاً آخر يا رجل.

وإذا بإسماعيل ينزل ضرباً، وتفرعتْ يداه إلى أياد كثيرة، فلم أقوَ على تحمُّل الضرب، وليست معي هويتي الشخصية، هذا ما جعلني مهزوزاً، وجد اسمي مرسوماً على جسدي، ومكتوب عليه: (مواطن صالح).

غاص جسدي في عُريه، فانسلتتْ ملابسي قطعة.. قطعة، كومها إسماعيل، ورفع هراوته- التي لم أنتبه إليها إلا الآن- عالياً، ودكَّ ملابسي كأنها ثعبان، ثم أدار الهراوة ناحيتي، فانكمشتُ، وبيَّتني عنده من الساعة الثامنة صباحاً حتى الثامنة مساءً.

رضيتُ بالمبيت عند إسماعيل، حتى رضي، وأحضر ملابس جديدة بدلاً من ملابسي، التي أظن أنه حرقها، أوخزَّنها، أو باعها في مزاد علني بعد تنظيفها، قال بلطف:

- البس يا رجل.

- تعودتُ الآن على العُري يا إسماعيل.

وتفرعتْ يداه إلي أيادٍ كثيرة، فلبستُ مضطراً.

- واسعة جداً!

ولاحظ شماتتي، فأعطاني أخرى.

- ضيقة جداً!

ولاحظ فرحتي، ربما يعطيني ملابسي، لكنه تركني، وأمرني أن ألبس أي واحدة.

يشخر إسماعيل وهو جالس كالمنوم، وهراوته بجانبه، كثيراً ما حاولتُ أن أهرب، وأمضي سريعاً، لكن المسافات بعيدة بين قدمي اليمنى، وقدمي اليسرى.

في يوم هادئ، أطلقتُ قدمي للريح، ستصعد روحه هذه المرة، ارتكنتُ على جدار دورة مياه عمومية وسط البلد، لي رغبة في الدخول، أتوجس، يمكن أن يستغل إسماعيل دخولي، ويحبسني، نظرتُ الطريق، فتاهتْ ملامحه، ووجه إسماعيل بعيد نسبياً، كل الناس لها بيوت، فدخلتُ دورة المياه العمومية، وأغلقتُ الباب العمومي من الداخل بالمزلاج الحديدي، سمعتُ همهمة خارج دورة المياه، تنهدتُ، لن أفتح لأحد مهما كان، أكيد أن إسماعيل له دخل في هذه الجلبة، الضجيج بدا جلياً، وواضحاً، وإسماعيل يشير بيديه لشخص ما ناحيتي.

أسبوع، اثنان، ثلاثة، والمزلاج الحديدي من الداخل قد أحكمتُ غَلقه، حتى كساه الصدأ. من تحت المزلاج، رمى إسماعيل

لي قصاصة ورق، مكتوب فيها: (أنت الآن آمن) فتبولتُ عليها، وسكبتُ عليها دمعة، ورميتها خارجاً، وإسماعيل يبصُّ عليَّ على فتراتٍ متباعدةٍ، وكثيراً ما يبتسم حين ألمحه، لكنني حين تيقنتُ أنه غير موجودٍ، حاولتُ فتح المزلاج الحديدي، لكنني لم أستطع، فابتسمتُ، وأحسستُ بحريتي لأول مرة.

تمَّتْ

***

ورقةٌ

نظرت إليه من أسفل قدميه إلى شعر رأسه، ثم تقابلت بعينيه العسليتين، طرحته أمام المأذون، لما رأته يمسك عنزته برباط أكيد، ويربت عليها.

- هل ترتضينه؟!

نظرته وعنزته، فاصطكت أسنان القلم الوحيد ببرد تلك اللحظة، ثم سلمه المأذون ورقةً مسطورةً بخطوط سوداء.

رنت زغرودة ملأت فم الشارع ببسمة، وهما على بداية الشارع العمومي الموصل لبيتهما، ثم وقفت بلا حراكٍ حين مأمأت العنزة، قالت:

- إما أنا أو العنزة.

ثم صمتت حتى أثمرت حروفها أكلها، ورائحة الشواء تسعدها، وكان قد تبسم في البداية، ثم قال:

- إني تعبى ومنكودة، هذه ليلة زفافي يا رجل.

فصنع لنفسه ذيلاً، ونهق ليضحكها، لكنها قد خلعت ملابسها، وصنعت لجاماً ألجمته به، وقالت:

- سرّ.

ولما استقرت فوق ظهره، كانت تترنم (ورقة الرجل لي) ثم لفت بها جسدها كله، وحين انتهى من لعبته، ووقف أمام بيته، أراد أن يتأبطها، كانت خشخشة الورقة تباغته، مدت يديها قائلة حين همَّ أن يضاجعها.

- أعطني ورقة أخرى.

***

ساق فرحته أمامه، وجرى صاعداً هضبةً عاليةً.

رجل ذو عباءة، لحيته بيضاء، وشعره أيضاً، وأصابع يديه مهترئة ترتعش، خرج تواً من تلك الهضبة، وقال للصاعد الهضبة.

- انتظر.

وفرد عباءته لدرجة أن العباءة قد حاصرت الصاعد الهضبة، ولم ير إلا ظلال تلك العباءة، قال ذو العباءة:

- أنت الذي أريد، قد وفقني الله أن قابلتك في هذه الساعة، يا لك من محظوظ، لماذا تجري؟!

- أبحث عن ورقة.

- .....

***

جلست تحت الهضبة العالية منتظرة نزوله، وحين أدركت أن الورقة التي كانت تستر بها جسدها قد اختفت، ولما أدركت أنه لن يعود، أخذت تلم أوراق الطريق؛ عسى أن تستر جسدها.

تَمَّتْ

***

رائحة

دورتان متقابلتان.. واحدة تخص الحريم، وأخرى للرجال.

يطأطئ رأسه لبرهة أمام دورة المياه الحريمي، ويستعطفهن لكشف أجلِّ أسرارهن أمام عينيه، نظراته موشومة بالفزع.

واحد فقط هو الذي يعرف سره، فيعطيه مُسكِّناً، ويلفُّ جسده المرتعش بورق، لقد كان يرتق جسمه النحيل بهذه الصور التي يشاهدها في الخفاء.. في الورق، أو الفيديو.

المرأة الواقفة، والحارسة لدورة المياه الحريمي تنظره ملياً لمّا يمر، وتداعبه من بعيد، وكانت تهشه بعنفٍ حينما يحاول الاقتراب.

حاول أن يرشوَ حارسة الدورة مرات عديدة، لكنها أقنعته بأن ذلك سيجلب عليه المتاعب، والصياح.

فاجأته الحيلة أخيراً بعد رواح الحارسة، وبعد انتهاء مواعيد العمل الرسمية، وانتظر حتى خلتْ الطرقة من السائرين، ثم انقضَّ بسرعة البرق، ودخل دورة المياه الحريمي، وظلَّ يستنشق من تلك الرائحة، ويملأ صدره بها.

تمَّتْ

***

تحوّل

جرس للحمار يعلن عن سيره، أو توقفه، ويجتمع الناس على صاحبه يحيُّونه.

ركب حماراً أعرج، وسار يغني، فانتشى هو وحماره، لمح على البُعد جميلة من بنات حواء، مرتدية الأبيض، وطرحتها على رأسها أيضاً بيضاء، تتخضب بالحناء بيديها ورجليها، خلفها طابور طويل يود اللحاق بها، تردد في سيره، حتى أوقف الحمار، فتعلقتْ برقبة الحمار، وقالت:

- ها أنا لك يا فارس هذا الزمن، أسرع، واحملني بعيداً.. بعيداً.

قال:

- حماري أعرج، يحملني قليلاً، وأحمله كثيراً.

قالت:

- يجب أن أكون معك، والحمار الأعرج سيبعدنا عنهم قليلاً، ثم ندبر أمرنا.

قال في نفسه بعد أن رآها جميلة، وقد استقرتْ بين ضلوعه (يا فارس الزمن الماضي قف، وانهض من قبرك) وحملها بين ذراعيه، وأسرَّ لحماره بكلمات قليلة، تحوَّل بعدها الحمار إلى فَرَسٍ، وقبل أن يمضي، كانت حواجز كثيرة قد زينتْ المكان في لمح البصر، وتسوروا حوله، طالبين منه التخلي عن الفتاةِ والفَرَسِ.

تمَّتْ

***

آخرُ الشوفِ

رجل معصوب العين، يقود امرأة معصوبة العينين أيضاً خلفه، يتعكَّزُ على عصا، وهي تمسك بذيله، وهو يرتدي لحمه البائن.

«نقع في حفرة، في ترعة، نصطدم بقطار سكة حديد، أو بجاموسة، أو يفترسنا ذئب».

هكذا كان يثرثر معصوب العين.

«كل الذي يجيبه الله جميل».

وهكذا كانت تثرثر معصوبة العينين، وتجيب.

أزاح عُصابته باليد التي تمسك العصا قليلاً، فعرف الطريق، يتفادى الجاموس والسكة الحديدية والترع والحفر، وطاف حول المقابر كثيراً «لا يغرنك سكوتها» هكذا قال، وقد مال بوجهه إليها، وكانت مقبرة خاوية.. مفتوحة، وجديدة، فأدخلها، وسدَّ عليها

المقبرة، وعاد، وهو يرى بعينين- آخر الشوف- عُصابة العين التي كان يرتديها مضطراً.

تمَّتْ

***

دعاءٌ

معروق ذلك الجسد الموزع على أرفف الدكان، مخلوع بابه، ولا أثر لباب كان هنا، الدكان بشارع عمومي، كقنديلين في مقدمة الرفِّ الأوسط تدلى ثديان، ومن ثم، كان تحت الثديين أياد مرفوعة، مسافة طويلة وزمن بين الثديين وتلك الأيدي. ينز الثديان بشيء يشبه الماء أو اللبن، فتلقفه الأفواه فرحة، بعض الوجوه قد أنكست بما يشبه الماء أو اللبن، الوحيد الذي قبض قبضة من الثدي ومضى، ذلك الولد الذي كان يتكئ على عصا، تطول أحياناً، وتقصر أحيانا وقد شاهدته مراراً يجوس بين الأرفف يتحسس بضاعته، ارتعشت الأيادي المروعة حين كبش الولد الثدي، ومن ثم، حبس الثدي ما ينزه (آه) قام على أثرها ذلك الجسد بالزوج، وجه الجسد يظهر حينا، ويختفي حينا، ونظر الزوج إلى ذلك الجسد المعروق الموزع على أرفف الدكان، ثم جلس جلسة الرجال.. الرافعي الأيدي، ورفع يديه بالدعاء.

تمَّتْ

***

مكانٌ

فلننفق ما شئنا من شغفنا، وهمسات قلوبنا على دهشة الصغار، حينما يسألون عنه بجدية، حينئذ فقط، نصغي للزمن الحبيس داخلنا، أو نصغي للزمن العجول.

هل يخرج من أجوافهم وأفواههم نغمة دافئة تدور على رؤوس الأحياء والأزقة، أو يظنون أنهم المعني، أم هو موجود قبل أن نُوجد؟!

من ربه؟! نحن، أم هم؟!

(اليوم هو يومه) هكذا قالوا، لكني لم أصدق (تلك إشاعة) وجلستُ منتظراً، فالحكومة لم تعلن عن مكانه.. لكنها- فقط- بعد ثلاثة أيام، أعلنتْ عن انتهائه.

إذن، لقد مرَّ العيد.

تمَّتْ

***

الصمتُ

جلس ماجد تحت شجرة، يفكر في الرحلة التي سيقوم بها غداً، بعدما أدرك أنه لا يستطيع العيش في المدينة التي لا تهتم بالبسطاء من الناس، ولا تعطيهم حقهم في حياة كريمة، وتسلبهم كرامتهم، وقال لنفسه: (أريد أرضاً جديدة، وسماء جديدة، وبشراً يحترمون البشر)، لكنه خائف من الصعاب التي تواجهه، وأيضاً يخاف مثل كل البشر من أي جديد، فالإنسان عدو ما يجهل كما يقولون، لكنه أَصَرَّ على حُلمه البسيط.

كان أهل المدينة يعترضون (ماجد)، ويسخرون منه، وهو يحاول عرض فكرته عليهم، واقتراحه بعمل سفينة، ووعده لهم بالكنوز، لكنهم سخروا منه، وقالوا:

- نحن لا ندفع أموالنا في شيء لا نعرفه، اذهب أنت، واحتفظ بالكنوز لنفسك.

فَكَّرَ ماجد قليلاً، وقال لهم:

- ساعدوني في قطع أشجار الغابة، وسوف أصنع السفينة.

قالوا له:

- نحن لا نُعرِّض حياتنا للخطر، الغابة بها حيوانات متوحشة!.

اجتمع ماجد مع عددٍ من الفتيان، وكان الغضب هو كل ما يملكونه، وطرح عليهم فكرته، وحُلمه البسيط، لكنهم وافقوا من باب الهرب من الواقع، وقطعوا الأشجار، وصنعوا مركباً صغيراً، لكنه كبير لحلمهم.

ظَلَّ المركب سائراً في البحر، تتخبطه الأمواج، والضباب يحجب الرؤية عن كل شيء، وكان ماجد يشاهد طيور البحر ترافقه، والأسماك أيضاً، لكنه تعجب من وجود الهدهد والحمامة، كان الهدهد كهدهد سيدنا سليمان، والحمامة كحمامة سلام، وكان ماجد يصطاد السمك، ويعطيه للفتيان الذين وافقوا أن يذهبوا معه في هذه الرحلة، لكنهم لم يحمدوا الله، وقالوا:

- نريد أن نأكل من طعام الأرض.

رد ماجد عليهم، وقال:

- للأرض طعام، وللبحر طعام، ونحن في عَرض البحر!.

وحزن ماجد من عدم صبرهم، وحينما رأى الهدهد، والحمامة على شراع المركب، تذكّر حديثهما، وهو جالس تحت الشجرة قبل الرحلة بيوم، قالت الحمامة للهدهد:

- نعم، إنه يفكر في رحلته.

وقال الهدهد للحمامة:

- لو يعلم ماجد كم سيستفيد مني في رحلته؛ لأخذني على الفور!.

قام ماجد، وتحدث مع الهدهد والحمامة، وأخبرهما بأنه سمع حديثها الشيِّق، ويتمنى أن يكونا معه في الرحلة الطويلة، التي سوف يقوم بها في الصباح، نَظَرا إلى بعضهما البعض، وأومآ برأسيهما دليل على الموافقة، وأنهما سوف يصحبان (ماجد) في رحلته.

ابتسم ماجد بعدما تَذَكَّر حديث الهدهد والحمامة، وهشّ الهدهد والحمامة، طَارَ الهدهد، وغَابَ عن البصر، وقال ماجد للفتيان:

- سوف يدلُّنا الهدهد إلى أقرب طريق للبر.

انتظروا الهدهد يومين، وفي اليوم الثالث، قال الفتيان لماجد:

- لن نصبر عليك بعد الآن!.

وقبل أن تغرب الشمس ظهر الهدهد، وحَطَّ على المركب، وهو يحمل رغيفاً من الخبز، مَسَكَ ماجد الرغيف، وقال لهم:

- هذا طعامكم الذي تريدونه!.

قالوا له:

- هذا رغيف واحد، ولن يكفينا!.

قال لهم ماجد بحدَّةٍ تنمُّ عن نفاذ صبره من عدم إيمانهم بالله، وبما يعملون:

- هل نسيتم الدافع الذي دفعكم لمرافقتي في هذه الرحلة!

قالها ماجد ثم أَمَسَكَ الرغيف، وقال: (بسم الله) وقسَّمه على عدد الفتيان، وأعطى كل واحد قطعة، قال لهم ماجد بعد أن أكلوا، وشبعوا:

- هل رأيتم أن السِّرَّ ليس في كثرة الأكل، ولكن في القناعة بما قسمه الله لنا، ليتكم تحمدون الله على ما أعطاه لكم من نِعَم مهما كانت قليلة، ويجب أن نركز فيما نحن مقبلون عليه، لأن أمامنا عملاً كثيراً جداً، ويجب علينا ألا نهتم بالطعام والشراب أكثر من الوصول إلى هدفنا وتحقيقه.

سار المركب في الاتجاه الذي طَارَ فيه الهدهد، وبعد يومين توقف المركب أمام شاطئ جزيرة، فَرِحَ ماجد والفتيان بوصولهم، كانت جزيرة جميلة، بها أشجار من كل صنف، وطيور ملونة، لكن الغريب في الأمر أن الجزيرة صامتة.. حتى الطيور لا تُغَرِّد.. منزوية

في أعشاشها، وساكنة بلا حراك، كان الثبات وعدم الحركة تفقد المكان جماله، وحيويته، الحياة حركة منضبطة مع كل الأشجار، والحيوات الأخرى، أو كما يقولون: (الكل في واحد)، لكن ماجد ورفاقه وجدوا القبح رغم جمال المظهر، ولاحظ ماجد أن الناس تهرب منهم، رؤوس تظهر فجأة ثم تختفي، الاختباء قبح، وعد المواجهة قبح، وعدم التعارف قبح.

بعد لحظات جاء عدد كبير من الحراس، وشكلوا دائرة حولهم، قاوم ماجد والفتية الحراس، لكن الكثرة تغلب الشجاعة، وقيّد الحراس أياديهم، وأخذوهم، ومضوا.

حاول ماجد أن يعرف تُهمته من الحُراس، لكنهم لم يتكلموا، حتى وصلوا إلى قصر كبير، عرف بفطنته أن هذا هو قصر الحاكم، الذي يحكم الجزيرة، ووضعوهم في حُجرة مظلمة، قال الفتيان لماجد:

- لقد ضيّعتنا يا ماجد!.

لم يشأ أن يرد ماجد عليه، ولكنه اكتفى بأن رمق الفتى بنظرة ذات مغزى، فهم منها الفتى ما يريد ماجد أن يقوله لهم، وبعدها التزم الجميع الصمت، حتى ظهر عليهم نور الصباح، أتى الحراس، وأخذوا ماجد ومن معه إلى الحاكم، كان الحاكم يجلس على عرشٍ ليس له مثيل، ولمّا رأي الحاكم ماجد ومن معه هَزَّ رأسه، وقال:

- تُهمتكم: أنكم تكلمتم بدون إذن منى، وعقوبة هذه التهمة: القتل.

قال ماجد للحاكم:

- تقتل الناس لأنهم يتكلمون! لقد أعطانا الله لساناً، وشفتين.

- لا تجادلني، لو تكلم الناس، ما صنعوا كل هذه القصور.

قال ماجد للحاكم بثقةٍ:

- وما فائدة القصور، ومن يسكنها يعيشون في تعاسة ؟.

رد الحاكم بحزمٍ:

- ومن أدراك أيها الفتى أنهم يعيشون في تعاسة!.

قال ماجد:

- نظرة واحدة إلى وجوههم، تكشف مدى التعاسة التي يعيشون فيها.

فقد الحاكم هدوء أعصابه، وصرخ في ماجد، وقال له:

- اصمت، وتَعَلَّم كيف تتحدث معي.

توسل الفتيان للحاكم أن يعفوَ عنهم، وقالوا له:

- لقد ضلَّلنا ماجد.

ابتسم الحاكم قليلاً، ثم قال:

- إذا استطعتم أن تحملوا الحجارة لبناء القصر الجديد، سوف أعفو عنكم.

هزّ الفتيان رأسهم بالموافقة، ثم أخذ الحراس ماجد إلى السجن، والفتيان إلى الجبل، رأى الفتيان الجبل العالي جداً، ورأوا الحجارة الثقيلة جداً، بعدها وضع الحراس على ظهور الفتيان الحجارة، وكان الواحد منهم تغوص قدماه في الرمال حتى ركبتيه، وينحني ظهره، ويلمس صدره الأرض من ثقل الحجارة، وكلما اقترب واحد منهم من قمة الجبل، سقطتِ الحجارة منه، ونزلتْ مرّة أخرى إلى أسفل الجبل، يعود يحملها من جديد، كل هذا، وماجد يجلس وحيداً في السجن، ولا يرى وجه أي إنسان سوى الحارس، الذي يدخل إليه بالطعام البسيط، الذي يُقدم له في المواعيد التي حددها الحاكم بنفسه بخصوص هذا الأمر، ذات مرة، حاول ماجد أن يجرِ حديثاً مع الحارس، لكن الحارس لم يستجب له في الحوار خوفاً من الحاكم، هو مثله مثل باقي سكان الجزيرة فُرِضَ عليه الصمت، وعدم الحديث مع أحد، حاول ماجد مرات ومرات مع الحارس، لكن الحارس لم يجاريه في الحوار، كان يكتفي بنظرة عدم رضاء عن وضعهم، وينظر لماجد بنظرة غريبة، كأنها تريد أن تقول لماجد: (ماذا تريد منا أن نفعل كي نتخلص من

هذا الكابوس الجاثم فوق صدورنا)، لم يصب ماجد باليأس لعدم استجابة الحارس له، ولكنه حاول أن يفكر في طريقة يحثه فيه على الكلام، حتى يستطيع أن يساعده هو وأهل الجزيرة، لكي يتخلصوا من هذا الكابوس الذي يعيشون فيه، تَذكَّر ماجد كوخهم القديم، الذي كان يطلُّ على النهر، وتَذكَّر والده المتوفى، الذي كان يساعده في رمي شِباك الصيد كل يوم.. في الصباح الباكر، كما تَذكَّر كلام أبيه عندما كان يقول له: (استمع إلى النهر) لم يفهم ماجد وقتها كلام والده، وحاول أن يسمع ما يقوله البحر حينما وضع أُذنيه على صفحة الماء، لكنه لم يسمع شيئاً، وقال بصوت عال: (النهر لا يتكلم، فكيف أسمعه؟) كان أبوه يبتسم له، ويقول بكل حنان: (كل شيء في الوجود له لغة: النهر، والطيور، والأشجار) من وقتها، وتَعلَّم ماجد فضيلة التأمل والاستماع، والصبر، وأعطاه النهر أسراره، وعرف متى يفيض، ومتى يرمي شِباك الصيد، عرف كل شيء عن النهر، وسمع خرير الماء، وارتطام الأمواج ببعضها، وسمع حفيف الأشجار، ومن خلال حفيف الأشجار كان يعرف الرياح القوية، ونسيم الريح، وعرف أصوات الطيور مثل زقزقة العصافير، وأدرك أن لكل شيء لغة.

كان والده يحكي له عن البحار، وعن الجُزر الساكنة في البحر، وعَلَّمه القراءة والكتابة، وأعطاه كتابين عن رحلات البحارة، ربما

يكون سبب ما فيه الآن بسبب رغبته في استكشاف نفسه، واكتشاف حياة أخرى تستحق المجازفة.

عاود ماجد محاولاته المتكررة مع الحارس، الذي يُقدم له طعاماً، وأخيراً نطق الحارس هامساً:

- ماذا يمكن أن نفعله كي نتخلص من هذا الكابوس؟

قال له ماجد:

- يجب أن تقولوا لا للحاكم، وعلى واقعكم القبيح، وخوفكم، وسوف أساعدكم من هنا.

وضع الحارس يده بسرعةٍ على فم ماجد، خشية أن يسمعه أحد من الحراس الآخرين، ويخبر الحاكم، ويكن مصير الحارس هو نفس مصير ماجد، ورفاقه، واصل ماجد حديثه غير عابئ بيد الحارس على فمه، وقال له:

- سوف أساعدكم، ولكن أريدك أيضاً أن تتعاون معي، أنا بمفردي لن أستطيع عمل شيء.

سَكَتَ الحارس قليلاً، وقال هامساً، وهو خائف.

- أنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً، لكن حاول أن تشحذ همم سكان الجزيرة، من أجل كلمة لا، لكل ما هو غير إنساني.

فرح ماجد بالفكرة، وقال له:

- فهمتُ، وسوف أفعل هذا من الغد أن شاء الله.

نَظَرَ ماجد إلى الهدهد والحمامة، اللذين يقفان على أسياخ الشُبَّاك الوحيد بالزنزانة المحبوس فيها، ثم قرَّر أن يكتب رسائل إلى شعب الجزيرة؛ ليعرفوا قصته، لكنه لم يجد الورق والقلم؛ فأخذ قطعة من قماش ملابسه، وجَرَحَ نفسه، وكتب الرسائل بدمه، ثم وضعها أمام الهدهد والحمامة، كل يوم؛ يحمل الهدهد رسالة، ويطير بها، ويلقيها أمام الناس في تجمعات بشرية مثل السوق، والحمامة تحمل أيضاً رسالة، وتطير بها، وتلقيها أمام الناس، حَمَلَ شعب الجزيرة رسائل ماجد، وأعطوها للشخص الوحيد الذي يعرف القراءة، كان شخصاً عجوزاً، يسكن في كهفٍ قديمٍ، بعيداً عن أعين الحاكم، تعجب الذي يقرأ الرسائل من الرسائل، ومن صاحبها، وتمنى معرفته، والجلوس معه، ومصافحته، شعب الجزيرة أيضاً، لا يعرفون صاحب هذه الرسائل، وتعجبوا من أمر الهدهد والحمامة، وكانت الرسائل تشحذ همم أهل الجزيرة، وكانت مكتوبة بكلمات مختصرة وموجزة: (حب لأخيك ما تحبه لنفسك، لا تكن عبداً للخوف، كن إنساناً، أنت حر كالطيور لا يكبلها إلا القفص).

مرّتِ الأيام التي حددها الحاكم سريعة، وفى اليوم المحدد ذهب الحاكم إلى الجبل، فوجد الفتيان راقدين على الأرض، ولم يرفعوا

حجراً واحداً إلى قمة الجبل، وابتسم لهم، وأمر حُراسه بجرِّهم إلى وسط الجزيرة.

اجتمع شعب الجزيرة بالآلاف، ليشهدوا موت الفتيان، وموت ماجد، وقبل أن يأمر الحاكم بموتهم، وقف الهدهد على كتف ماجد، والحمامة وقفتْ على الكتف الآخر أيضاً، وتذكَّروا الرسائل التي كتبها، قال ماجد لشعب الجزيرة:

- الخوف هو الذي أخرس ألسنتكم، وجعلكم عبيداً لشخصٍ واحدٍ.

رأى الناس ماجد، وهو على وشك الموت، وفي لحظة واحدة هرول شعب الجزيرة، وتجمَّعوا حول الحاكم، حتى الحُراس، وقالوا: (لا، لن تحكمنا) في وجه الحاكم، فَكَّ شعب الجزيرة قيود الفتيان، وقيود ماجد، الذي جرى على الحاكم؛ ليحميه من الضرب، تعجب الناس من ماجد، الذي قال لهم:

- اتركوه.

ثم توجه إلى حارس الزنزانة، وقال لأهل الجزيرة:

- من يستحق الشكر، هو هذا الحارس الأمين، لولاه ما أصبحتم على ما أنتم عليه الآن، من حرية، ومن قدرة على الكلام مع بعضكم البعض، وشعوركم بكل هذه السعادة؛ لقضائكم على الكابوس الجاثم فوق صدروكم، والخوف الذي كان يسكنكم.

حملوا ماجد، والحارس على الأعناق فرحين.

شَقَّ الرجل العجوز لنفسه طريقاً بصعوبة، حتى وصَلَ إلي ماجد والحارس، تعجب شعب الجزيرة من الرجل العجوز، الذي لم يظهر بينهم منذ مدة طويلة، قطع العجوز هواجسهم، وقال بصوتٍ خفيضٍ:

- لا تستقيم الأمور إلا بالفهم، والتعلم من أخطائنا، سأحكي لكم حكاية لتفهموا.

وحكى حكاية شاهدها بنفسه قديماً.

***

(قام الملك من نومه مفزوعاً، واستند على أريكة السرير العاج.. والمُبطَّن بريش النعّام، ونادى على الحاجب الذي لبى النداء مسرعاً، انحنى الحاج قليلاً، واستعدّ لتلبية أوامر الملك، وظلّ فترة من الوقت على حالته، حتى أَمَرَه الملك باجتماع عاجل مع وزراء دولته، أتى الوزراء بسرعة، ودخلوا إلى الصالة الفسيحة.. المُزينة بكل الأشياء الجميلة، وقد فزعوا من دعوة الملك لهم في هذا الوقت من الليل، وتهامسوا فيما بينهم؛ لعل واحداً منهم يعرف سرَّ هذا الاجتماع الطارئ، وتوقع الوزراء الشرّ من الملك رغم طيبته، وعدالته.

لَبَسَ الملك تاجه المُرصع بالذهب والياقوت، وسار صامتاً، وعبوساً.. على الرغم من بسمته الجميلة، وبشاشة استقباله لكل الناس بِحُبٍ ومودةٍ، وجلس بعد أن ألقى عليهم تحيته، واعتذر لهم بلباقة عن دعوته لهم في هذا الوقت المتأخر، هدأتِ النفوس، وطوتِ الهمَّ الذي ألَمَّ بها، ثم هتفوا جميعاً بحياة الملك الذي أمرهم بالصمت والاستماع إليه، وقال:

- أفتوني فيما رأيتُ في منامي هذه الساعة.

قال كبير الوزراء:

- قُصّ علينا ما أقلق منام الملك.

تنفس الملك بعمقٍ، وقال:

- رأيتُ كل الناس في مملكتي عُمياناً.. إلا فتى.

قال وزير:

- أنت عيوننا التي نرى بها!.

ابتسم الملك قليلاً مجاملة للوزير، ثم أكمل حديثه:

- إلا فتى يحمل فانوساً عجيباً، وسار الناس حول هذا الفتى، وبعد فترة عاد لهم الإبصار.

تشاور الوزراء فيما بينهم، وعجزوا عن تفسير الحُلم، ولمّا وجدوا الحزن في عين الملك؛ قدّموا حكيمهم قائلين:

- لا يُفتى ومالك في المدينة!.

جلس الحكيم مع نفسه قليلاً، وفتح بعض الكتب القديمة، ثم قال للوزراء:

- اصنعوا للملك موكباً ليرى شعبه غداً.

أضاء التُجار مصابيح الجاز، وعلّقوها على أبواب المحلات، ورشّوا الأرض بالماء بعدما ردموا الحُفر، سار الموكب، والناس يلقون على الملك الورود وتحيات الحُب، كان حُب الناس له يجعله أشدّ عدلاً ورحمة، وحتى الآن لم ينشرح صدره، وحاول أن يدخل في أماكن غير التي زيّنوها، لكن الوزراء منعوه بحُجّة حمايته، وفى نهاية المطاف تأبط الحكيم، وأمَرَ الجميع بالرجوع.

- حسناً فعلت، يجب أن ترى أحوال الناس بنفسك.

ابتسم الملك للحكيم، وقال:

- نعم يا حكيم، يجب أن أرى الجانب المُظلم من مملكتي، ربما يكون هذا هو تفسير الحُلم.

وافقه الحكيم، وسار بجوار الملك الذي انحرف في الحواري والأزقة، التي لم يرها أبداً، وانقضى وقت طويل، وهما في الظُلمة، وصرير الحشرات، ونعيق البوم جعل المكان موحشاً، ثم خطف بصرهما ضوء شديد الوهج.

فكّر الملك في الحُلم، الذي أوصله إلى تلك المناطق، التي لم يشاهدها أبداً، وفكّر في تلك الظُلمة، وأدرك أن ما يفعله الآن هو نصف الحُلم، ثم أخذ يبحث عن مصدر الضوء، ولمّا نال منهما التعب جلسا بجوار بعضهما، وكانت الأنفاس لاهثة، ثم سار الملك خطوات قليلة، واصطدمتْ قدمه بشيء ما، استعاذ بالله، ثم نادى على الحكيم الذي هرول إليه، ثم انحنى على الأرض يبحث، حتى لمستْ يداه قطعة من حديد، مسكها، وتحقق منها، ثم قال للحكيم:

- إنه فانوس قديم قد علاه الصدأ.

حَكَّ الملك صدأ الفانوس، الذي ازداد وهجاً، وأجزم أن بداخل الفانوس مارداً، وأراد أن يكسره، ويرميه بعيداً، حتى لا تُضار الناس، فقال الحكيم:

- هذا تفسير حُلمك.

تعجب الملك من كلام الحكيم، وقال:

- إنه فانوس قديم، ليس له فائدة، ونحن كبار لا نستطيع اللعب به.

ابتسم الحكيم، وقال:

- هو ليس لك، هو لأصحابه.

بعد عودة الملك والحكيم، قابل الوزراء الذين لم يبرحوا مكانهم، وكان أهل المدينة ينتظرون الملك؛ ليحكوا له عن قسوة الحياة، سمع الملك الشكاوى، وخفف عنهم بقدر استطاعته، ثم أعلن في الجميع قائلاً:

- هذا الفانوس لأشجع واحد فيكم.

فهَجَمَ عليه الكبار والصغار، وقبل أن يصلوا إلى الفانوس قال:

- إن بداخله مارداً.

فانصرف الجميع إلا واحداً، كان طفلاً وسيماً وشجاعاً، سار الفتى واثق الخُطى، حتى وصل إلى الملك الذي تعجب منه، وكانتْ الناس تُحذر الفتى، مسك الفتى الفانوس، ودعكه بقوة، وخرج المارد من قُمقُمه، شاهراً سيفه، وقال:

- من الذي قطع علىّ خلوتي؟!.

رد الفتى الشجاع:

- أنا.

ولمّا لم يرى المارد خوف الفتى قال:

- ماذا تريد؟!.

فقال الفتى الشجاع:

- أُريد كنزك الدائم.

أخرج المارد سبورة سوداء، وقلماً أبيض، وخطّ بعض الأسماء، وبعض الأرقام، ثم قال للفتى:

- أنت الآن لا تحتاج لأحدٍ.

وانكمش المارد رويداً.. رويداً، ثم اختفى. احتضن الفتى كَنزَه الدائم، وغاب عن الأنظار، ثم اختفى هو الآخر).

***

أدرك ماجد المغزى العميق لتلك الحكاية، وبحث عن الرجل العجوز، الذي اختفي هو الآخر في لحظة، لكنه وجد كتاباً من العجوز: دستور الجزيرة، وقانونها القديم، وقال ماجد للجميع بصوتٍ عالٍ:

- لن تستقيم أمور الجزيرة إلا ببدايةٍ صحيحةٍ.

بعدها، قرر شعب الجزيرة، تعيين الحارس حاكماً عليهم، ولأول مرة يشاهدون حاكمهم السابق صامتاً.

تمَّتْ

***

الكاتب فى سطور

الاسم الأدبي/ ممدوح عبد الستار.

الاسم بالكامل/ ممدوح محمد عبد الستار نصر.

العنوان / شارع عمر بن الخطاب- الدجمون- كفر الزيات- الغربية- مصر

الرمز البريدي ٣١٦١٨٠

للتواصل مع الكاتب

رقم الهاتف المحمول/ ٠٠٢٠١٢٨٥٦٤٩٨٦٨

الإيميل/

mamdohabdelsattar@gmail.com

***

الفهرس

البحـثُ..... ٧
صوتُ المنشـدِ..... ١٤
انتظـارٌ..... ١٧
السـدودُ..... ٢٢
قصةٌ لم يكتبها الكاتـبُ..... ٢٦
الحِكايـةُ الثانيـةُ..... ٣٢
ثُقبٌ في بطاقتـي الشـخصية..... ٣٩
ذراعٌ يحملُ الفاكهـةَ..... ٤٤
صاحبـي..... ٥١
بُعدٌ أخـير..... ٥٥
حكايةٌ ميتـة..... ٥٩
اعترافٌ متأخِّـرٌ..... ٦١
ابتسـامةٌ..... ٦٥
اختـلافٌ بسـيطٌ..... ٦٨
ظل لرجـل..... ٧٢
نافذةٌ ضيقـةٌ..... ٨٣
خـروجٌ..... ٨٩
زُنفل «الحـاوي»..... ٩٤

في النهرِ..... ١٠٣
بقعتـــان..... ١٠٩
العـزاءُ..... ١١٦
زغـرودةٌ..... ١٢٠
الوقوفُ تحـت المظلـةِ..... ١٢٣
الوصولُ إلى المحطـةِ..... ١٢٧
راضيـــة..... ١٢٩
ليلٌ، ونهـارٌ..... ١٣١
بيتُ الراحـــةِ..... ١٣٦
ورقـــةٌ..... ١٤١
رائحـــة..... ١٤٤
تحـــوّل..... ١٤٦
آخرُ الشـــوفِ..... ١٤٨
دعـاءٌ..... ١٥٠
مـكانٌ..... ١٥١
الصمـــتُ..... ١٥٢